نصيب العالم من رسالة خاتم المرسلين
محمد صلى الله عليه وسلم

لو كانت الحركة التى أحدثها الإسلام انحصرت فى بيئتها التى نشأت فيها ، لما ساغ لنا أن نذكر نصيب العالم منها ، ولكنها كما يعلم الناس كافة ، ما عتمت بعد انتقال النبى ﷺ إلى الرفيق الأعلى ، أن اجتازت حدود البلاد العربية شمالا وشرقا وغربا وجنوبا ، متخطية جميع الحوائل التى وضعت أمامها ، وكانت سببا مباشرا لتغيير خريطة العالم فى مدة لا تزيد على ثمانين سنة .

لو كانت هذه الحركة ذات صبغة استعمارية باحتة ، لانحسرت بعد بلوغ شوطها الأقصى ، تاركة وراءها أحاديث الفظائع التى ارتكبت لتدويخ الأمم ، ولسلبها ما بأيديها من المال والعتاد ، ككل حركة من هذا النوع حدثت فى خلال العصور ؛ ولكن هذه الحركة لم تسكن حتى بعد وصول الفتوحات التى اقتضتها إلى نهايتها التى قدرت لها ، بل حتى بعد طروء الضعف والفتور على بنية الدولة الإسلامية التى تمثلها ، ويجب أن أقول حتى بعد أن ضاع استقلال أكثر الممالك الإسلامية ، واشتد كَلَب الدعاة على أهلها فى جميع البلاد الشرقية . وهذا يدل دلالة لا تقبل النقض على أن قوامها عنصر أدبى له وقع عظيم فى النفوس ، لبقائه مؤديا مهمته فى أثناء دور الفتور الذى أصاب جماعته ، وقد شوهد أنه اشتد وازداد سلطاناً على العقول عندما بلغ هذا الفتور أقصى درجاته فى القرن الأخير .

هذا موضوع دراسة علمية لا يجوز إغفالها، بل هو موطن القصد الرئيسى من الرسالة المحمدية ، إذا لم تكشف حقيقته ، وبقيت تحت حجب الإغفال ، استحالت السيرة المحمدية إلى مثل سير رجال التاريخ العاديين ، وبقى معنى الإسلام الذى استوعب كل حياة النبى ﷺ ووجوده ، مجهولا حتى عند أهله الأقربين . ونحن لأجل إدراك هذا القصد مضطرون للرجوع إلى ما كان يفهمه من الإسلام رجاله الأولون ، والجماعات التى تتسارع إلى الدخول فيه من أهل الملل الأخرى .

الأمر الذى كان يفهمه المسلمون الأولون من أمر هذا الدين ، أنه ليس بدين

جديدٍ ، ولكنه الدين الأول الذى أوحاه الله إلى جميع رسله فى خلال القرون ، وأفسده القادة بالزيادة فيه والنقص منه ، وتناوُله بالشروح الطويلة ، وإخراجه عن حقيقته بالتأويلات الخيالية ، ليتم لهم ما كانوا يرمون إليه من التسلط على الناس ، وتسخيرهم لمصالحهم الخاصة . ولم يكن فى الأرض دين سلمت أصوله من هذا التحريف ، فخنع كل قبيل لما عليه الكافة ، غير متوقعين أن يكون لهم مخرج منه ، فصبروا على ما هم عليه مستسلمين .

اتفق أنه عند ما نشأ الإسلام كان بجزيرة العرب يهود ونصارى ، نزحوا إليها هربا من اضطهاد الفرس والرومانيين ، فأخذوا ، ولا سيما اليهود ، يقدحون فى الإسلام ويحرضون المشركين على مقاومته ، ويشدون أزرهم على ذلك ، ويثيرون الشبهات عليه . فكان ينزل فى الرد عليهم قرآن يَدْحَض ما يفترون ، ويبين وَهْنَ ما إليه يستندون . استمروا على ذلك حتى بعد أن أسلم جم غفير من أعليائهم . فاجتمع من شبهاتهم والرد عليها شىء كثير من الحوار ، تجلت فيه الأصول التى يقوم عليها الإسلام ، والمبادئ التى شرع ليبثها فى القلوب ، ويحمل على احترامها العقول ، ويبين ما عليه خصومه من مجافاة المنطق ، ومخالفة الواقع ، والتعويل على الوساوس ، والجمود على الأضاليل . وهذا كله يعتبر أكمل أسلوب للدعاية إلى الحق فى أمم أحيطت بالأباطيل ، حتى كادت تختنق فيها فطرتهم الإنسانية ، فتخلط بين ما هو حسن وما هو قبيح ، وبين ما هو ممكن وما هو مستحيل .

ما تبين للأمم من هذا الحوار :

تبين لها من هذا الحوار هذه الأصول :

(١) شرع الدين لتربية الإنسان وتكميله ، لا لتسخيره وتذليله .

(٢) دين الله واحد لا يتعدد ، وإنما تعددت الأديان بسبب ما أدخله عليها زعماؤها من آرائهم ، وما حمَّلوها من تأويلاتهم .

(٣) خُلق العالم الإنسانى كله من أب وأم ، فجميع أفراده إخوان ، وقد انقسموا بسبب كثرتهم إلى شعوب وقبائل ، فيجب أن يتعارفوا ويتآلفوا ، لا أن يتناكروا ويتناحروا .

(٤) قوام الدين العقل ، ومادته العلم ، وميزانه الدليل ، العقل المطلق من أسر

الأوهام التقليدية ، والعلم القائم على الأعلام الوجودية ، والدليل الخالص من مؤثرات الأهواء النفسية .

(٥) التكاليف الدينية ، مقيسة على الاستطاعة البشرية ، وللعاجز عن أدائها المعذرة .

(٦) لا وساطة بين الله وعبده ، ولا سلطان لطائفة تنتحل لنفسها هذه الوساطة ، وليس أحد بملزم أن يتبع رأى غيره ، فهو حر لا يتقيد إلا بما تتقيد به الكافة أمام الشريعة العادلة .

(٧) التقليد غير جائز لأنه كما يكون فى حقٍّ يكون فى باطلٍ ، وفى الاتباع غنى عنه ، ولا اتباع إلا بعد النظر فى أدلة المتبوع ، ومحاكمة أقواله إلى المنطق والعلم .

(٨) الدين لا يحرِّم على الإنسان إلا ما يضره ، ولا ينهاه إلا عما يفسده ، ولا يعاقبه على الخطأ والنسيان ، ولكن على العمد والإصرار .

(٩) كل إنسان مسئول عن نفسه ، وعن أعماله ، ومطالب بالدفاع عن ذاته ، لا يغنيه فى ذلك لجوؤه إلى ملك مقرب ، ولا انتسابه إلى نبى مرسل ، أو ولى حميم .

(١٠) لا فضلَ لنفس على نفس ، ولا سلطانَ لضمير على ضمير ، ولا مزية لأمة على أمة ، فالكل سواء أمام الله ، وإنما التمايز بتقوى الله وطاعته .

(١١) المنح الإلهية سواء أكانت مادية أم روحية حق للكافة على السواء ، تعطَى للمستحق لها بلا تمييز بين الأجناس والألوان واللغات .

(١٢) المثل الأعلى للاجتماع أن يكون الناس أمة واحدة ، يدينون بدين واحد ، هو دين البشرية الأول الذى نزل على أسلافهم ، ولكن بعد تجريده من زيادات المتزيدين ، وأهواء المتحكمين ، وأضاليل المؤولين ، وأن يكونوا أمة عالمية خاضعة لأحكام العقل ، ومتمشية مع فتوحات العلم ، وماضية قُدُماً فى تحقيق المُثُل العليا من العدل والإنصاف والمساواة والحرية والاستقلال ، والتطهر من بقايا الوحشية والصفات الحيوانية .

الفرق بين الإسلام والأديان الأخرى فى معنى الدين :

هذه بعض الأصول والمبادئ الإسلامية التى يجد الباحث فيها عشرات من الآيات القرآنية تدل عليها نَصّاً ، وقد دوّنتها كتب الشريعة الإسلامية بين دفاتها ،

ونبه إليها الأئمة ، وبنوا عليها استنباطهم للأحكام ، ووضْعَهم للنظم الاجتماعية . وأنت ترى أنها جملة وتفصيلا مخالفة لما كانت عليه الأمم كافة . فقد كانت الجماعات لا تفكر فى وحدة الدين ، ولا فى صحته أو تحريفه ، فإن ذلك كان موكولا للقائمين به ممن نصبوا أنفسهم مهيمنين عليه . وكان الناس يعتقدون ، كما أوهمهم بذلك قادتهم ، أن الدين لا يُتناول بالعقل ، ولا يتحكم فيه بالنظر ، فإنما هو إيمان تقليدى لا يجوز أن يتردد عقل فى قبوله . وكل علم يدفع بصاحبه لتحقيق الاعتقاد وتصحيحه ، وكل فلسفة تستدعى إثارة الشكوك فى النفوس ، كانت تعتبر ملعونة يستحق المشتغل بها أن يرمى فى النار حيا ليموت على أفظع حالة . أما التكاليف الدينية فكانت فى نظرهم من حق المهيمنين على الدين ، وعندهم أنه لا يلحظ فيها تربية الإنسان ولا تكميله ، وإنما محض العبودية للخالق ، وكلما كانت أشق على النفس ، وأدعى للإعياء واللغوب ، كانت أفضل .

أما الوساطة بين الله وعباده ، فكانت فى نظرهم ضرورية ، لأن رؤساءهم أوهموهم أن ذلك من وضع الخالق نفسه ، وأنهم وكلاؤه فى أرضه ، ما يحلُّونه فى الأرض يحل فى السماء ، وما يعقدونه فى الأرض يعقد فى السماء . والطاعة لهؤلاء الوسطاء واجبة ، وتقليدهم أمر لابد منه بدون نظر ولا نقد ، ولا تَطَلّب دليل ، فذلك كفر !

أما المسئولية الشخصية فلم يكونوا يقولون بها ، لأن القائمين على الدين هم الذين يجيبون عنهم فى الآخرة ، وهم الذين يتولون عند الله الشفاعة لهم .

أما تفاضل النفوس فكان من الأمور المقررة عندهم ، فالذين ينتسبون إلى الطوائف الممتازة من القادة والزعماء والوسطاء ، مفضلون على من سواهم ، ويجب أن يعفوا من جميع التكاليف الاقتصادية والقانونية ، والخدم الاجتماعية .

أما المثل الأعلى للاجتماع فكان فى نظرهم ما هم عليه ، وإن كانوا أسرى للتقاليد ، وعُبّاداً للخيالات ، وصرعى للأباطيل ، يساقون سوق الأنعام إلى حيث لا يعلمون ، أو إلى حيث يعلمون ولا يريدون .

هذه الأصول التى تولى نشرها القرآن ، ويصلح كل منها أن يكون ثمرة لثورة

اجتماعية ، اجتمعت بين دفتى كتاب ، فتألفت منها روح إلهية قامت بها أمة ، ثم سرت فى أربعة أرجاء المعمور لا يصدها شيء ، لأنها مطلب الفطرة البشرية ، وسَكَن النفس الإنسانية ، ومُتَنَسَّم العواطف القلبية ، فلا عجب أن تبقى حية قوية حتى بعد أن أصاب جماعتها الوهْن ، وبَرَّح بها الفتور ، فهى حظ العالم كله لاحظ أمة واحدة منه .

وإذا شوهد أن هذه الروح تزداد على مدى الأيام فتاء وقوة ، فلأن كل تَرَقٍّ للإنسانية يظهرها ، ويجلى حقيقتها ، ويتولى إذاعتها ، فهى مما لا يعقل أن يضعف أو يزول بتمادى الأيام ، وكرّ الأعوام .

تعليل سرعة انتشار الإسلام :

إن السرعة التى انتشر بها الإسلام فى بيئات لا تعرف العربية ، وبدون دعوة منظمة ، قد حيرت مؤرخى العالم الغربى ، وهو حدث فى حد ذاته يوجب الحيرة ، لم يدون التاريخ له نظيرا فى حياة العالم كله . فالدين الموسوى لم يجاوز فى انتشاره أسرة إسرائيل ، ولا يزال فى الحدود التى كان عليها من لدن وجوده . والدين المسيحى بقى نحو ثلاثة قرون محصوراً فى طوائف مبعثرة ، لم تقم لها دولة ، إلى أن تولى الامبراطورية الرومانية كونستانتين الأول ، وكانت أمه قد ربته على الديانة المسيحية ، فحمل قومه على النصرانية ، وأمر بتحطيم الهياكل والمعابد الوثنية ، واعتبر النصرانية الديانية الرسمية للامبراطورية الرومانية (٢٧٤ – ٣٣٧) . من ذلك الحين قام النصارى بإرسال بعثات تبشيرية منظمة للبلاد القصية ، استعمل فيها الإجبار أحيانا . ولما اكتشفت أمريكا فى القرن الخامس عشر ، وجدت تلك البعثات مجالا فسيحا لدعوتها ، وخالفت فيها سماحة المسيحية مخالفة صارخة ، وقد دون مؤرخوهم كل ذلك تفصيلا مما لا موجب لنشره .

ولكن الإسلام الذى يحرّم مثل هذا الإجبار فى نصوص صريحة من كتابه : ﴿ لَا إِكْرَاهَ فِى الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الغَىِّ ﴾ [1] ، ﴿ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِى هِىَ

---

(١) سورة البقرة (من الآية ٢٥٦) .

أَحْسَنُ ﴾ [١] ، ولم تكن له قط إدارة دعاية منظمة ، قد سرى إلى أقصى ما يمكن أن تسرى إليه دعوة ، وبلغ عدد أتباعه فى نحو قرن واحد أكثر من مائة مليون نسمة ، ثم استمر تياره فى السرعة حتى بلغ إلى ما هو عليه الآن ، مقاوما كل الدعايات السيئة التى تحاط بها سمعته ، ومتغلبا على جميع العقبات التى توضع فى طريقه ، مستمرا على ما هو عليه ، واثقا بقوته الذاتية ، ومحدّثا نفسه بأن سيكون ديانة العالم كله فى يوم من الأيام : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ ٱللهِ ، فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ﴾ [٢] .

هذه الظواهر الغريبة لا يمكن تعليلها إلا بما ذكرناه ، من أن هذا الدين قد حمل إلى الناس روحا إلهيا ، فيه من قوة السريان ، وعظم السلطان ، ما لجميع الحقائق الخالدة .

اعتبر ذلك فى الأمم التى كانت تخالف العرب فى لغتها ، ومنها ما كان لها السلطان عليهم كالأمة الفارسية التى كان قد خضع لها العرب آمادا طويلة فى العراق واليمن . فإن هذه الأمة العريقة فى السؤدد والمدنية بعد هزيمتها فى وقعة القادسية تحت قيادة سعد بن أبى وقاص ، بدل أن تشتغل بدس الدسائس ، وتدبير المكائد ، وإشعال نار الفتنة فى كل مكان ، لإجلاء العرب عن بلادها إرضاء لأنفتها القومية ، أخذت تشتغل بالدخول فى الإسلام ، ونشره فى ربوعها ، وتعلم لغة المغير عليها وحذقها ، والتبحر فى علوم القرآن وفروعها ، فلم يمض عليها سنون معدودة ، حتى كان أقطاب الإسلام من رجالها ، وكانوا قد توزعوا ضروب البحوث النقلية والعقلية واللغوية ، حتى سأل السائلون : ماذا كان يحدث لو لم يتول الفرس والديلم والأجانب عن العربية هذه العلوم الإسلامية ؟

سبب تهافت الأمم على الدخول فى الإسلام :

لست أريد التوسع فى تفصيل هذه الإجمال ، فهو معروف مقرّر بين أهل

---

(١) سورة النحل (من الآية ١٢٥) .

(٢) سورة الأنفال (من الآية ٣٦) .

العلم ، ولكنى ألفت نظرهم لهذه الظاهرة النفسية المدهشة ، التى تدل دلالة قاطعة على أن هؤلاء الأقوام تلقفوا مبادئ هذا الدين لِما آنسوا فيها أنها منزلة للإنسانية عامة ، لا لأمة خاصة ، وأن كتابها لم يذكر فى مخاطباته أمة باسمها القومى قط ، فلم يقل مرة واحدة : يأيها العرب ، ولكنه قال عشرات المرات : يأيها الناس ، ويأيها المؤمنون . ولما رأوا أيضا أنّ فى الإسلام غذاء أرواحهم ، وشفاء قلوبهم ، وسكن عقولهم ، ومطمأن نفوسهم . وإنى لا أظن أنه يمكن سياقة برهان أقوى من هذه الظواهر ، على أن أصول هذا الدين ومبادئه كانت ولا تزال حاجة الجماعات الإنسانية .

ومما أعود فألفت النظر إليه ما ذكرته فى صدر هذه المقالة ، من أن أصول الإسلام ومبادئه لا تزال فيها قوة الاستمرار حتى بعد ضعف أهله ، وذبول دولته . وهذه أكثر تحيرا للعقل من سابقتها ، فإن الناس قد اعتادوا أن يفتتنوا بدين القوى ومذهبه وعاداته ، حتى أهوائه وأوهامه ووسأوسه وفسوقه ، بل بلاهاته وجنونياته ، واتفقوا على أن يتحولوا عن الضعيف وكل ما يتصل به من عقائد وعادات وتقاليد ، وأن يشنّعوا عليها ، ويتشاءموا منها ، وأن يتوقعوا كل سوء من الأخذ بها .

ولست أحيل القارئ من ذلك إلى أمر مستور ، فقد ثبت ثبوتا قاطعا حتى بشهادة دعاة الملل الأخرى ، أن دعاية الإسلام تنجح حيث تخيب جميع الدعايات الأخرى . فلو لاحظت أن البعثات التبشيرية تدعو إلى أديان الأمم القوية ، ذات المدنيات الفاتنة ، وقد حُكِّمت فى أموال طائلة ، تبذلها تألفا للناس وجذبا لمودتهم ، ولها دور فخمة يسكنها رجالها ، يؤوون فيها من يظهر الميل إليهم ، ويمدونه بالمأكل والمشرب والملبس ، ويختصونه بالحماية بين أهله ومعشره ؛ بينما لا توجد بعثة رسمية للإسلام ، اللهم إلا نفرا من التجار ، أو أفرادا من متسولة الدراويش ، يعيشون عالة على من يدعونهم ، ومع ذلك يتسارع الناس إلى الدخول فى ملتهم ، مفتونين بما يسمعونه منهم من أصول الإسلام ومبادئه . وهذه الحال كما تشاهد فى أفريقا ، تشاهد فى آسيا والاقيانوسية ، وكل مكان لا يكلف فيه الانتقال من دين إلى دين تأثيرا سيئا على الحالة الاقتصادية أو الاجتماعية كما هى عليه فى أوربا وأمريكا . فهذه الظاهرة ذات دلالة قوية جدا على أن أصول الإسلام ومبادئه قد جلبت للإنسانية خيرا لم يجلبه

دين قبله ، ولا أى نظام اجتماعى آخر . فإن الأقوام التى تسكن بلاد العرب وسورية وبلاد الفرس وبلاد ما وراء النهر إلى الصين ، كلها خرجت من وثنية منحطة ذات أصول جاهلية ، إلى دين هو أرق ما يمكن أن يتصوره العقل ، نالوا بسببه مزايا اجتماعية وأدبية لا تحصى . فبعد أن كانت القبائل العربية لا تعرف الوحدة ، ولا تدين لغير القوة ، وكانت الحروب بينها دائمة التسعّر ، تآخت فى دين الله ، وسادها النظام ، ورحل كثير منها إلى الممالك التى فتحها الإسلام ، وساهمت فى بناء مجد المسلمين ، ورفع أعلام مدنيتهم الفاضلة .

أما الفرس فقد أعاد لهم الإسلام دولتهم وثقافتهم ووحدتهم ، فقد كانوا انتهوا فى أواخر عهدهم إلى مثل العهد الإقطاعى الذى أهلك أوربا قرونا طويلة ، فكان دخولهم فى الإسلام سببا فى رجوع وحدتهم إليهم ، وزوال أسباب التناحر من بينهم . وعادوا إلى أكمل مما كانوا عليه أيام مدنيتهم ، وكثر فيهم نبوغ الأئمة الدينيين ، والمؤلفين العلمين ، والكتاب والشعراء المبرزين .

أما الأمم التى وصل إليها الإسلام فى شمال بلاد الفرس وشرقها إلى الصين ، فقد أخرجها الإسلام من غيابة الخمول العقلى ، وصار يدوّن تاريخ الأدب من رجالاتها أسماء لا يزال يعترف العالم بفضلهم على العلوم والفنون والصنائع إلى اليوم .

ولا أحدّثك عن الأمم التى كانت لا تذكر فى تاريخ البشر ، إلا فى باب المستعمرات للأمم القوية فى الإسلام كأمم شمال أفريقا ، فقد تألفت فيها دول ، وقامت فيها مدنيات ، وسجلت لها اسما فى ديوان الجماعات التى ساهمت فى بناء المدنية .

أما مصر التى كان قد أحالها الاستعمار الرومانى إلى جثة مصبرّة ، كما عبر بذلك عنها الأستاذ جول لابوم ، فى مقدمة الفهرست الذى وضعه للقرآن الكريم ، فقد تنبهت من رقادها الطويل ، ونفضت عنها غبار خمولها المزمن ، وعادت أفضل مما كانت عليه فى عهد فراعنتها ، حتى كان من مؤسساتها ما بقى إلى اليوم قبلة أنظار مئات الملايين من البشر ، يقتبسون منه الدين واللغة ، وهو الأزهر المعمور .

ماذا أفاد الإسلام أهل أوربا من الناحية الأدبية ؟

يخيل إلىّ ، وقد انتهيت إلى هذا الحد ، أنك تريد أن تسألنى : وماذا أفاد

ظهور الإسلام أهل أوربا من الناحية الأدبية ؟ فأجيبك :

ظهر الإسلام فى القرن السابع للميلاد فى وقت كانت فيه أوربا فى ظلام حالك بشهادة المؤرخين الأوربيين ، فكان رجال الدين هنالك مستولين على السلطة الدنيوية فوق سلطتهم الروحية ، وقد حملهم تطرفهم فى حماية العقول من الشبهات الدينية التى تثيرها العلوم فى الصدور على إعلان أنها عدوة الدين ، فقاطعها الناس طائعين ومكرهين ، فنضبت ينابيعها ، وتصوحت أزاهيرها وأقوت مغانيها ، ولم يبق منها إلا ما تمس إليه الحاجة الساذجة .

وكان إذا سولت لإنسان نفسه أن يعيد النظر فيها ، أو أن يبنى رأيا على أصولها ، زُجَّ به فى أعماق السجون ، وعُذب واستتيب ، فإن أناب أطلق سراحه ، وإن أصر ألقى حيًّا فى النار !

ظهر الإسلام وأوربا من أدناها وأقصاها على هذه الحال ، فقفز بعض رجاله إلى أسبانيا فامتلكوها ، وكانت على مثال غيرها من الاستبداد فى الحكم ، والتضييق فى الدين ، فمضى المسلمون على سجيتهم فى تأسيس المدارس بها ، ونشر العلوم ، وبناء المستشفيات ، وإقامة المراصد ، وفتح جامعاتهم لمن يقصدها من الطلاب ، غير ناظرين إلى أجناسهم ولا أديانهم ولا ألوانهم ، فتنوّر كثير من أهل الأقطار الأوربية فى مواد العلوم ، وقدم إليها طلاّب آخرون من بقية الممالك . وكان المسلمون قد امتلكوا أيضا جزيرة صقلية (سيسيليا) فى جنوب ايطاليا ، فجروا هنالك أيضا على عادتهم من نشر العلم ، وتشييد دوره ، فدخل إليها طلاب كثيرون من سكان تلك البقاع . فكان ذلك سببا مباشرا فى انتشار علوم المسلمين وآدابهم فى أوربا ، واندست معها أساليبهم فى التمحيص ، وأصولهم فى التدقيق ، فتنبهت هنالك عقول ، وفكرت فى مصيرها نفوس ، وأدركت حالتها قلوب ، فكان ذلك ، على قول الأوربيين ، سببا فى نهضة أوربا الحديثة .

فهل يمكن أن يثبت لنا إنسان ، بأن دينا من الأديان ، أو نظاما من النظم ، عم خيره الأرض ، ونالت كل أمة منه نصيبا مثل ما عمها من الإسلام ، إما مباشرة وإما بواسطة ؟

هذا ولم يتم الإسلام جولته العالمية بعد ، ولا تزال أمم فى الأرض لم تبلغها منه

دعوة ، وأمم قد ضُللت فيه تضليلا بعيدا ، ولكنه بما أودع من قوة وحق ، سيتغلب على هذه العقبات كلها حتى يسود العالم كله : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾ (١) .

ربما استغرب باحث أن لا تؤثر أصول الإسلام على سمُوّها هذا فى العالم المتمدن ، كما أثرت فيما عداه ، والواقع أن العالم المتمدن الذى استعصى على الإسلام ، هو أعصى ما يكون على العلم نفسه ، الذى كان ثمرة من ثمرات رجاله ، فلا يزال الناس فيه يعيشون على الضد بما يوصى به قانون الصحة ، وما يتطلبه ناموس الأخلاق ، وما يتقاضاهم إياه علم الاجتماع ، وتصيبهم على ذلك المَثُلات فلا يرعَوُون ؛ فهل يصح أن يقال اعتمادا على هذا : إنهم سيستمرون على مُعاصاة الحقائق ؟ اللهم لا ، فلابد لهم من متاب ، يوم يحدث تطور أدبى جديد ، فيتغلب العقل على الهوى ، ومتى حدث ذلك ظهرت أصول الإسلام هنالك على أكمل ما هى عليه فى أية بقعة من بقاع الأرض ، وتم له الأمر ﴿ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ ﴾ (٢) .

وأنا لا أقول هذا لأن الإسلام دينى ودين قومى ، ولكن لأن الأصول التى يقوم عليها ، والمبادئ التى يدعو إليها ، هى النواميس الإلهية الخالدة التى اكتشفها الناس فى خلال العصور المتتابعة ، ودلت عليها العلوم اليقينية فى أدوار متوالية من الثورات الفكرية ، والانتقالات الأدبية .

إن دينا يدعو إلى المثل الأعلى من الاجتماع ، وهو أن يتعارف الناس قاطبة ، ويعيشوا إخوانا متكافلين ، لا أعداء متناحرين ؛ وإلى نصب العقل ميزانا لتمييز الحسن من القبيح ، والحق من الباطل ؛ وإلى إدمان النظر والفكر ، وإعمال الروية والبصيرة فى اكتناه المجاهيل ، وتمحيص المعاليم ، والبعد عن الظنون والأوهام ، واجتناب الخيالات والوساوس ، والاستماع إلى كل قول واتباع أحسنه ، وتصيد الحكمة حيث كانت ، والإحسان فى كل شىء ، وتطلب العلم من معادنه ، وعدم الوقوف منه

---

(١) سورة فصلت (من الآية ٥٣) .

(٢) سورة ص (الآية ٨٨) .

عند حد ، وعدم التقيد بأحوال الأمم السابقة ، والسير قُدُما إلى الغايات البعيدة ، والنهايات القاصية ، والتخلق بأخلاق الله فى سموها وإطلاقها ، والاتصاف بالمحامد والابتعاد عن السفاسف ، ومجانبة الظلم والانظلام ، والعدل المطلق حتى حيال الأعداء الألداء ، والدءوب على إصلاح العالم ، وعدم الإفساد فيه إلخ ، مما لا يمكن إحصاؤه ، وقد قامت الفلسفة بتفصيله فى الزمان الأخير ؛ قلت : إن دينا يدعو إلى كل هذه الأصول على إطلاقها ، وفى غاية سموها ، لا يعقل أن يقف من انتشاره عند حدّ ، ولا أن يحال بينه وبين القلوب بصدّ ، ولله الأمر من قبل ومن بعد : ﴿ يَاأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُوراً مُبِيناً ، فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ ، فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِنْهُ وفَضْلٍ ، وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطاً مُسْتَقِيماً ﴾ (١) ، ﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ اللهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ * قُلْ آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا ، وَمَا أُنْزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ ، وَمَا أُوتِىَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ (٢) (*) .

★ ★ ★

---

(١) سورة النساء (الآيتان ١٧٤ ، ١٧٥) .

(٢) سورة آل عمران (الآيتان ٨٣ ، ٨٤) .

(*) مجلة الأزهر ، المجلد العاشر ، الجزء الخامس ، جمادى الأولى سنة ١٣٥٨ هـ .

نفسية محمد ﷺ
قبل النبوة وبعدها

قلنا فى فصل مضى إن النبوة مرتبة روحية يستأهل بها صاحبها أن يتلقى العلم عن الله بدون وساطة العقل والحواس على ضروب شتى ، ويسمى هذا التلقّى وحيا . وقلنا إن الوحى رغما عما يثيره ضده الماديون مشاهد محسوس فى العالم الحيوانى لا يستطاع تجاهله ، ولا قيمة لما علل به أولئك الماديون هذا الوحى الحيوانى ، كما أثبتنا ذلك بكل حجة . ثم ألممنا بما كشفه العلم من التنويم المغناطيسى ، وما تجلى فيه من وجود شخصية باطنية للإنسان أرقى من شخصيته العادية ، ليس للإنسان بها أقل علم ، وما ثبت من وجود أفراد من كبار الرجال شهدوا أنهم كثيرا ما هدوا إلى حلول نظرياتهم العويصة فجأة بدون إجالة نظر ، أو أنهم يسمعون بآذانهم ما يجب أن يكتبوه ، أو يرون بأعينهم ما يجب أن يؤلفوه إلخ . ثم ختمنا ذلك بقولنا :

« هذه مشاهدات محسوسة وأقوال مأثورة عن كبار العلماء والمؤلفين ، ساقها الأستاذ الكبير (هـ . و . ميرس) لإثبات وجود عقل باطنى فى الإنسان له اتصالات روحانية فى عالم فوق هذا العالم ، وأنا لا أريد أن أثبت بما أنقله أن النبوة عبقرية ، أو هى من نوع الحوادث التى سردناها هنا ، ولكنا سقنا ما سقناه للتدليل على أمرين عظيمين : أولهما وجود الهداية والتعليم بدون وساطة العقل العادى والحواس ، وثانيهما وجود اتصالات روحانية باطنية تمد الإنسان بعلمٍ ، وتسعفه بهدايةٍ من غير طريق العقل العادى ، ولا من منافذ الحواس الخمس إلخ » .

واليوم أعالج موضوعا آخر أخصّ من كل ما تقدم ، وهو نبوة محمد بن عبد الله ﷺ ، فأدرس أولا الأدوار التى سبقت عنده الوحى ، ثم أتبعها بأدلة صدقه ، متوخيا فى ذلك الأسلوب الذى تعهدت بالجرى عليه ، وهو الأسلوب المتفق عليه فى الزمان الأخير فى تحقيق مسائل العلم .

كيف بدأ محمد معيشته كفرد فى القبيلة التى أنجبته :

ولد محمد فى سنة ٥٧١ للميلاد فى أشرف قبيلة عربية وهى قريش ،

ومن أكرم أسرة فيها وهى أسرة بنى هاشم . فهو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ابن هاشم . وأمه آمنة بنت وهب وهى قرشية أيضا .

توفى والده عبد الله ومحمد جنين فى بطن أمه لشهرين مضيا من الحمل به . وولد فى دار عمه أبى طالب ، وأسماه جده عبد المطلب محمداً . فلما بلغت سنه الرابعة أو أكثر توفيت والدته ، فكفله جده عبد المطلب وكان سيد قريش ، ولم يلبث أن توفى ، فكفل محمدا عمه أبو طالب وعمره ثمان سنين .

ولما بلغت سنه اثنتى عشرة سنة بدا لعمه سفر إلى الشام للتجارة فاستصحبه معه .

ولما بلغت سنه العشرين حضر مع قومه حرب الفجار ضد بنى قيس .

وكان كسب محمد منذ ألقى على عاتقه أن يمون نفسه ، من رعاية الغنم لأصحابها على قراريط يأخذها .

ولما بلغت سنه الخامسة والعشرين دعته سيدة ذات مال تدعى خديجة بنت خويلد ليسافر إلى الشام فى تجارة لها ، وكانت تستأجر الرجال لهذا الغرض ، فسافر محمد بن عبد الله إلى ذلك الإقليم مع غلام لها اسمه ميسرة ، فباع واشترى وأربحها ربحا عظيما ، فوجدت فيه الرجل القوى الأمين ، فخطبته لنفسها فتزوجها ، وكانت تناهز الأربعين ، اشتهرت بالعقل والتصون . فصار محمد يعمل فى مالها حتى دعى للرسالة .

واتفق وهو فى الخامسة والثلاثين من عمره أن حدث سيل جارف انصدعت منه جدران الكعبة ، وكانت وهنت من حريق كان أصابها قبل ذلك ، فرأت قريش أن تهدمها وتعيد بناءها ، فكان أشرافهم وكبراؤهم يحملون الحجارة على أكتافهم تبركا بالعمل لإقامتها ، وكان منهم العباس بن عبد المطلب وابن أخيه محمد بن عبد الله .

ولما جاء وقت وضع الحجر الأسود مكانه تنافس أشراف قريش فى وضعه ، واختلفوا حتى كادت تشب بينهم حرب من أجله . فأشار عليهم أمية بن المغيرة

المخزومى أن يحكموا رجلا منهم يرضون حكومته . فقالوا نكل أمر الحكم لأول داخل علينا . فكان ذلك الأول محمداً ، فأخبروه الخبر ، فبسط رداءه ووضع فيه الحجر ، وقال لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب ، فرفعوه على هذا النحو حتى انتهوا إلى موضعه ، فأخذه هو ووضعه فيه .

نفسية محمد قبل النبوة وبعدها :

لم يشتهر محمد بن عبدالله قبل مبعثه ، ما عدا الاستقامة الخلقية ، بشيء من المميزات اللسانية والثقافية ، فلم يكن بالشاعر الذى يرنن أوتار القلوب ، ولا بالخطيب الذى يختلب أهواء النفوس ، ولا بالعالم الذى يستهوى شهوات العقول ، ولا بالفارس الذى يلجأ إليه فى حماية الحوزة إذا جد الجد فى حربٍ زَبُون . ولم يعرف بشيء مما كان العرب يعولون عليه فى منازعاتهم ومكاثراتهم ومماتناتهم [1] ومنافراتهم ، فلم يعيَّن مرّةً ، بعد تشاور ، قاضيا فى نزاع ، ولا فيصلا فى خلاف ، ولا مرجعا فى مجهول ، ولا حكما فى منافرة .

لقد كان لدى العرب رجال يلوذون بهم فى المهام التى تطرأ عليهم مناسبة لحياتهم القبيلية . فكان لديهم قَافَةٌ يتتبعون بهم أثر الجناة ، ونسّابون يصعدون بالمرء إلى أُرُومته الأولى ، ومُتَطبِّبة يلتمسون عندهم العلاج ، ورُواة يرجعون إليهم فى الشعر والكلام البليغ ، ومحكّمون يعوذون بهم فى المنازعات ، وكهّان يعتقدون فيهم الاتصال بالروحانيات ، فكانوا يسألونهم عن الغيوب ، ولم يكن محمد فى شيء من هذه الخطط كلها ، فعاش بين قومه لا يلفت لأحدهم نظرا ، ولا يستهوى بمظهره العادى لبًّا .

اشتغل فى طفولته راعياً فلم يَمْتَزْ عن زملائه فى شيء غير استقامة سيرته ، وكرم شمائله ، وبعده عن السفاسف . فلما كبر اشتغل بالتجارة فكان كأوسط أهلها لم يَبُزَّ أمثاله فى شيء غير أمانته فى الأداء ، وعدالته فى المعارضة .

كل إنسان كتب له النبوغ فى عمل من الأعمال يظهر عليه ميل إليه فى طفولته ، فمن قدِّر له أن يكون شاعراً أو كاتباً أو خطيباً أو حكيما أو قائداً نمَّت

---

(١) ماتنه : باراه وغالبه ، وبينهما مُمَاتنة أى مباراة .

فطرته عليه فبدرت منه ، وهو طفل ، ما يدل على ما سيتبغ فيه ، ولم يظهر على محمد بن عبد الله ما يدل على ما سيؤل إليه غير مَيْل كان فيه إلى السكينة والتفكير ، وكلما تقدمت به السن ازدادت حاجته إليهما حتى تأدى به ذلك إلى تمضية أيام بلياليها فى غار بقرب مكة يقال له حِراء ، فكان يمضى فيه تارة ثلاثة أيام وتارة سبعة وتارة تسعة وتارة شهرا ، يمكث فيه وحده متفكرا متدبرا .

هذه هى الصفة التى ميزت محمد بن عبدالله عن غيره من أهل جيله ، وهى صفة لا يجوز أن تغفل أو أن يمر بها مَرًّا ، لأنها مظهر ما استتر فى سويداء نفسيته من النزوع إلى أفق الروح ، والاتصال بعالم الملأ الأعلى ، وما لازمت هذه الصفة نفساً بشرية إلا وجهتها هذا التوجيه الروحى على قدر ما فيها من قوة . ولقد كانت هذه الصفة مستوعبة شعور محمد استيعاباً لا يدع لغيرها مكانا فيه ، بدليل لجوئه إلى غار موحش أياماً ولياليَ متوالية يمضيها فى التفكير وتلمس المخرج من الحيرة . منْ أىّ ضرْبٍ كانت هذه الحيرة ؟ من الضرب الذى يشغل بال الكَمَلة من أصحاب القلوب ، والبرَرَة من أولى العزم : تخليص النفس من ظلمات المادة وتخليص الغير منها .

ونحن إذا كنا نجهل مجامد محمد قبل النبوة لقلة اكتراث الناس له ، وعدم أُبْهِهِم [1] به ، فإننا نستطيع أن نعرفها بما عرف عنه بعد النبوة والتفاف الناس حوله ، ونقلهم عنه كل شاردة وواردة من أعماله وأخلاقه . والحكم على ما كان عليه إنسان من أحوال وآداب فى أول أدواره ، بما عرف عنه منها بعد وصوله إلى قمة المجد ، وبلوغه غاية مرامه ، يكاد لا يعدو الحق ، فإن المعهود عادة أن الإنسان قد يطغيه النجاح ، ويفسد قلبه الفُلْج ، فيصبح جبارا عنيداً بعد أن كان وادعا متواضعا ، ولا عكس . فكل ما دُوِّن عن محمد ﷺ ، بعد مبعثه من شمائل وآداب كانت لا شك له وهو فى ميعة الصبا وعدم استكمال سن النبوة .

وقد دُوِّن من شمائله أنه كان وادعا متواضعا ، هينا لينا ، يلقى أصحابه هاشّا

---

(١) أبه للشيء وبه أُبْهاً : فطن له وتنبّه .

باشًا ، لا يترفع عليهم ، بل يؤثرهم على نفسه ، ولا يسمح لهم بتعظيمه وتقبيل يده ، وقد عاش طول حياته متقشفا مُخْشَوْشِنا ، لم يشبع من خبز الشعير الذى كان يفضله على غيره . وقد بقى متّصفا بهذه الفضائل حتى اختاره الله لجواره .

قال الحسن بن على رضى الله عنه : سألت هند بن أبى هالة ، وكان وَصَّافا ، فقلت صف لى منطق رسول الله ﷺ ، قال :

« كان رسول الله ﷺ متواصل الأحزان ، دائم الفكرة ، ليست له راحة ، طويل السَّكْت ، لا يتكلم فى غير حاجة ، يفتتح الكلام ويختمه باسم الله تعالى ، ويتكلم بجوامع الكلم ، كلامه فصل لا فضول فيه ولا تقصير ، ليس بالجافى ولا المهين ، يعظم النعمة وإن دقت ، لا يذم منها شيئا غير أنه لم يكن يذمّ ذوَاقاً (أى طعم شىء) ولا يمدحه ، ولا تغضبه الدنيا ولا ما كان لها ، فإذا تُعُدِّى الحق لم يقم لغضبه شىء ، (أى لم يقم لدفع غضبه شىء) حتى ينتصر له ، ولا يغضب لنفسه ولا ينتصر لها ، إذا أشار أشار بكفه كلها ، وإذا تعجب قلبها ، وإذا تحدث اتصل بها وضرب براحته اليمنى بطن إبهامه اليسرى ، وإذا غضب أعرض وأشاح ، وإذا فرح غضّ طرفه ، جُلُّ ضحكه التبسم ، يفترّ عن مثل حَبِّ الغَمام » .

إن هذه النفس الحائرة الثائرة ، التى لم تجد فى العالم المحسوس ما تعوّل عليه ، وتركن إليه ، فأخذت تلتمس بِلَال غلّتها ، وسَكَن جيشانها ، فى عزلة الكهوف ، وظلمة المغاور ، وهى محرومة من ملاذ المطاعم والمشارب ، ومتع المكاسب والمآرب ، لهى نفس لم تطبع على غرار هذه النفوس العادية ، ولا تشغلها من المطامع والمطامح ما يشغلها فى محاولاتها اليومية . وإلا فماذا كان ينقص محمدا بعد أن بلغ مبلغ الرجال ، وأصبح له زوجة وأطفال ، وعمل شريف يتكسب منه ، حتى يؤثر على لذات الحياة البيتية ، ومتع المحاولات الاجتماعية فى سن استكمال القوة ، واستتمام الفتوة ، حياةَ الانقطاع عن الناس ، وتجنُّب معاملتهم فى الفترات التى تسمح له بها أعماله المادية ؟ أكان يتطلع من وراء هذا التزهد لزيادة موارده المادية ، وتحقيق مطامعه الاجتماعية ؟ إن تحقيق هذين المطلبين لا يكون إلا فى الأسواق العامة ، حيث يكتظ الباعة والشارون ، وفى المجامع والأندية حيث يجتمع العقلاء ويتشاورون ، لا كِسر غارٍ على رأس جبل لا يرقى إليه الطير .

لم تكن البيئة العربية بالبيئة التى تحفل بالمسائل الروحية وتعظم مدعى تمثيلها بين الناس ، فلم يكن فيهم مُتَبَتِّلة ولا متزهِّدة يعظمهم الناس ويتلمسون بدعائهم البركات ، ولا عباد انقطعوا للعبادة فى الصوامع على نحو ماكان عليه أهل الكتاب ، وكل ما كان لديهم من هذا القبيل كهان بدعون الاتصال بالجان ، وما كان لهم من كبير شأن عند العرب حتى يطمع امرؤ فى أن يعد من زُمْرتهم .

هنا يحار الفيلسوف فى تعليل لجوء محمد بن عبد الله ، وقد مهد له طريق الحياة ، إلى غار يمضى فيه أياما كثيرة ، فى بيئة مادية محضة ، ليس فيها ما يغرى بالانقطاع للعبادة ولا بالتفرغ للتفكير .

ماذا كان يريد محمد بن عبد الله من وراء هذه العزلة الشاقة ، والعناء الكبير ؟ لا تجد الفلسفة إلا جوابا واحدا ، وهو أنه كان نافرا مما عليه قومه من الضلال البعيد ، كارها أن يشاطرهم هذه الحياة الحيوانية ، فلم ير إلا أن يلجأ للتفكير طلبا للهداية إلى سواء السبيل . مطلب بعيد ، ولكن القلوب الكبيرة تُلْهَم أنها مستقر أسرار خطيرة ، ومستودع أنوار يرتد عنها الطرف وهو حسير ، فلتجأ إلى ذاتها تستثير قواها الكانّة ، وتستجش مساتيرها الثاوية فى سويداء معناها الصميم .

هذه كانت بداية كل نابغة كبير ، وكل مصلح عظيم .

ولكن فيلسوفنا لا يكاد ينتهى إلى هذه الحقيقة ويفرح بها حتى يعترضه أمر خطير : وهو أن محمدا لم يخرج من غاره نابغة كبيرا ، ولا مصلحا عظيما ، ولكنه خرج خائفا ترتعد فرائصه ، فلجأ إلى داره وهو يقول لأهله : زَمِّلونى زملونى ، أى دثّرونى دثرونى ، فقد كان يشعر ببرد شديد من هول ما ظهر له من الشأن المهول .

هنا يعترف الفيلسوف بالعجز عن فهم ما حدث لمحمد ، ويترك مكانه للبيكولوجى الخبير . فيتساءل هذا : ما الذى أصاب محمدا حتى اعتراه هذا الذعر الشديد ؟ فيعلم أنه لما خرج من الغار خائفا أتى أهله فقال لهم : ظهر لى شخص وقال لى : أبشر يا محمد أنا جبريل وأنت رسول إلى هذه الأمة ، ثم قال لى اقرأ . فقلت له ما أنا بقارئ، (أى إنى أمى لا أعرف القراءة) ، وكنت نائما على نَمَطٍ

(وهو نوع من البُسُط) فغطّنى به (أى غمّه به بأن جعله على فمه وأنفه) حتى ظننت أنه الموت ، ثم أرسلنى فقال اقرأ . فقلت ما أنا بقارئ ، فأخذنى فغطّنى ثانية ثم أرسلنى ، ثم قال اقرأ . فقلت ما أنا بقارئ ، فأخذنى فغطنى الثالثة ثم أرسلنى ، وقال : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ ، خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ، إِقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ، عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ (١) ، فقرأتها وانصرف عنى وقد استقر ذلك فى قلبى .

ثم يعلم ذلك البيكولوجى أن ذلك الشخص لم يظهر لمحمد ثانية إلا بعد أربعين يوما وقد يئس من عَوْده . فبينما هو يمشى يوما إذ سمع صوتا من السماء فرفع إليه بصره ، فإذا هو الشخص الذى جاءه بالغار جالس بين السماء والأرض . فرجع إلى أهله وهو يرتعد رعبا وقال لهم : (دثرونى دثرونى) أى أدفئونى . فأنزل الله عليه : ﴿ يَأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ، قُمْ فَأَنْذِرْ ، وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ، وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ، وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ، وَلاَتَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ، وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ﴾ (٢) إلى آخر السورة . فصدع بأمر ربه وقام بعد أن هدأ روعه يدعو إلى الإسلام سرا ثم أُمِر باعلان الدعوة فأعلنها ، وما زال جاداً فيما هو بسبيله حتى دانت له الأمة العربية قاطبة و لم تَدِن لأحد قبله .

ولكن البيكولوجى لا يعتد بهذا الفلج كله ، ولا يهمه أمره ، والذى يعنيه هو أن يتحقق ذلك الشخص الذى كان يظهر لمحمد ويكلمه أهو صورة ذهنية أم حقيقة لها وجود فى الخارج ؟ لأنه يعلم أن ضروبا من الأمراض العصبية وخصوصا الهستيريا تظهر للمريض بها أشباحا لا حقيقة لها .

نعم إن الصور الهستيرية لا نتيجة لها غير إزعاج المريض وإقلاق راحته ، والتأدّى به إلى الجنون أو ما يشبهه ، ولكن الصورة التى كانت تظهر لمحمد كانت تهديه للخير ، وتقيمه على الصراط ، وتمده بما يجب أن يقوله لأمته ليهديها إلى سواء السبيل ، وقد تم لها ما أرادت .

---

(١) سورة العلق : الآيات (١ – ٥) .

(٢) سورة المدثر : الآيات (١ – ٧) .

يرى البسيكولوجى هذا الفرق كله ولكنه لا ييأس من تعليله ، فيذهب فكره إلى الشبح الروحانى الذى كان يظهر لسقراط ، ولا يرحل إلى أشباح أخرى ظهرت ولا تزال تظهر للكثيرين ، لأن شبح سقراط مُجْمَع على صحّته بشهادة جميع تلاميذ هذا الفيلسوف ومنهم أفلاطون وأكسينوفون . والمعروف عن شبح سقراط أنه كان يظهر له ويُفْضى إليه بما يجب أن يقوله أو يعمله ، وكثيرا ما أفضى إليه بأمور مستقبلة وأخبر بها تلاميذه ووقعت . وسقراط هذا يعتبر إمام الفلسفة اليونانية ، وقد رفعه بعض المؤرخين إلى درجة النبوة لنبله وفضله واستقامته .

وفيما نحن بسبيله من أمر محمد ﷺ لا يلبث البسيكولوجى أن يعتقد بمَلَك محمد أكثر من اعتقاده بالشبح الروحانى لسقراط (أولا) لا نتفاء افتراض الهستيريا فى خاتم النبيين كما تقدم ، (ثانيا) لثبوت تحقق أمور غيبية كثيرة أفضى بها الملك إلى محمد مثل قوله تعالى : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنْتَصِرٌ . سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴾ (١) ، وقوله : ﴿ لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذىً وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ ﴾ (٢) ، وقوله : ﴿ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ ﴾ (٣) ، وقوله : ﴿ مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ (أى سقف بيته) ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ ؟ ﴾ (٤) . وأجل من ذلك كله قوله تعالى : ﴿ وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ ، وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً ، يَعْبُدُونَنِي لَايُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً ، وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ (٥) .

متى آنس صاحبنا البسيكولوجى كل هذا قرر أن مَلَك محمد ﷺ كان أكثر

---

(١) سورة القمر ، الآيتان (٤٤ ، ٤٥) .
(٢) سورة آل عمران ، الآية (١١١) .
(٣) سولأة غافر ، الآية (٥١) .
(٤) سورة الحج ، الآية (١٥) .
(٥) سورة النور ، الآية (٥٥) .

ثبوتا من الشبح الروحانى لسقراط ، وأجلّ أثرا منه ، ولكنه لا يزال يشك فى كنهه هل كان له وجود خارجى أم هو صورة ذهنية لمحمد أوجدها عقله الباطنى ؟ لذلك تراه يعمل على استيعاب جميع مراتب الوحى فى أثناء نزول القرءان :

(فأولها) الرؤيا الصادقة فى النوم .

و(ثانيها) ما كان يلقيه الملك فى صدره من غير أن يراه .

و(ثالثها) خطاب الملك له عندما كان يتمثل له بشراً سويا .

و(رابعها) رؤيته جبريل فى صورته الروحانية فيأخذ عنه .

و(خامسها) ما كان يلقى إليه بصوت مثل صلصلة الجرس ، وكان هذا النوع أشده عليه فإن جبينه ﷺ كان يتفصد فى أثنائه عرقا فى اليوم الشديد البرد . وإذا اتفق حصوله وهو راكب بركت ناقته على الأرض ، وحدث مرة أن نزل عليه الوحى على هذا الضرب وفخذه فوق فخذ زيد بن ثابت فثقلت عليها حتى كادت ترضها . وقد شوهد أنه كان إذا أوحى إليه على هذا النوع أصابته رعدة وكرب ، وتربَّد وجهه ، وغمضت عيناه ، وربما غطّ كغطيط البَكْر (أى الفتىّ من الأبل) .

كل هذا لا يحمل البيكولوجى العصرى على القول باستقلال جبريل عن شخصية محمد الباطنة ولا يزال يجد نفسه متأثرا بالشبهة التى مؤداهاأن نبوته يمكن تعليلها بالأعراض الهستيرية . فيرى نفسه مضطرا لأن يتأمل فيما كان يتأثر به من الأعراض عند نزول الوحى عليه ، فيجد ما يأتى :

(١) أن محمدا لم تكن تظهر عليه أعراض عند نزول الوحى عليه إلا عندما كان يلقى إليه بصوت يشبه صلصلة الجرس .

(٢) أن الهذيان الهستيرى لا يحدث إلا مصحوبا بأعراض ثقيلة من التخبط والاضطراب والصياح والعويل ، وهو ما لم يحصل قط لمحمد حتى فى أثقل حالات الوحى عليه .

(٣) أن ما ينسب للهستيريا من الهذيان يحدث فىأثناء النوبة ، فإذا أفاق المريض لم يذكر شيئا مما قاله . وهذا على عكس حالة محمد فقد كان لا ينطق فى أثناء الوحى بشىء حتى يتم ، فيعيد كل ما ألقى إليه ويأمر بتدوينه . وقد كان ، حرصا منه على استظهار ما كان يلقى إليه ، يعيده بلسانه أو يحرك به شفتيه ، فنهاه

الحق عن ذلك بقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْءَانِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ ، وَقُلْ رَبِّ زِدْنِى عِلْماً ﴾ (١) ، وقوله ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ، إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْءَانَهُ ، فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْءَانَهُ ، ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴾ (٢) ، أى إن علينا جمعه فى صدرك فلا تخش أن يفلت منك ، فإذا قرأه عليك الملك فأنصت إليه وتتبع قراءته .

(٤) أن مواضيع الهذيانات الهستيرية ، لا تخرج عادة عن تصورات وهمية تناسب الأعصاب المتعبة المريضة ، كتخيل المريض رؤية روح شرير يتوعده بالأذى ، أو يتقصده بالقتل ، أو يقلقه بالاستهزاء والتحقير ، ولم يشاهد هذيان هستيرى قط موضوعه نشر فضيلة ، أو إذاعة هداية ، أو الدلالة على مصلحة ، وأنت خبير بأن موضوع الوحى الذى كان يتلقاه محمد ﷺ كان أكبر شأنا من كل ما اشتغل به العالم الإنسانى وهو إذاعة الدين الأول الذى أوحاه الله إلى المرسلين الأولين ، خالصا من جميع الأوهام البشرية التى ألصقها به قادة الأمم بَغْياً بينهم ، وعدوانا على الحقيقة ، وكان ذلك بقصد إصلاح عام للأديان والمعتقدات ندب الحق للقيام بهذه المهمة محمدا ﷺ على فَتْرةٍ من الرسل . هذا عدا عما استتبع هذا الإصلاح العام من دعوة الأمم للتعارف والتآخى ، والإفضاء إليهم بالأصول الأولية للشريعة العادلة ، والأخلاق الفاضلة ، والمدنية الكاملة ، مما يتفق الناس قاطبة على صحته ، ولا يجدون فى أنفسهم حرجا من ناحيته . وقد أثرت هذه الدعوة فسرت بين الأمم سريان البرق ، ومهدت الطريق لأصحابها للحصول على زعامة الأرض ، ولا تزال تبهر العلماء بآياتها ، وتسحر الألباب ببيّناتها ، وتفتح القلوب بأدلتها ، حتى قرر أهل البصر أن مآل الناس قاطبة إلى حظيرتها . فإذا كان هذا كله أثر هذيانات هستيرية ، ونُوَب مرضية ، فماذا أبقيت بعد هذا للوحى السماوى ، والفيض الإلهى ، والإشراقات العلوية ، والاتصالات الروحانية .

---

(١) سورة طه ، من الآية (١١٤) .

(٢) سورة القيامة ، الآيات (١٦ - ١٩) .

هنا لا يتمالك البسيكولوجى نفسه فيخر ساجدا لله وهو يقول :

اللهم ما أقوى سلطانك ، وأسطع برهانك ، أُمّى فى أقصى بيئة عن العمران ، وأبعد مكان عن معترك العقول ، ومضطرب النظريات والمبادئ ، وبين ظهرانَىْ أقوام لم يألفوا النظام ، و لم يأنسوا بالوحدة ، مضطرين إلى ذلك بفواعل الطبيعة المحيطة بهم ، وعوامل الحياة القاهرة لهم ، يَتندب أن يكون رسولا للناس كافة فيدعوهم للكلمة الجامعة بينهم ، والطريقة اللّامَّة لشعثهم ، ملوحا لهم بالأصول الحكيمة لتحقيق هذا المطلب الذى لم يطف بخيال فيلسوف ولا مصلح قبله ، مدللا على إمكانه بالأدلة القاطعة ، والأمثال الساطعة ، وضاربا لهم المثل العملى بالقيام بتأليف أمة عالمية ليس فيها ظل من نعرة القومية ، ولا عصبية الجنسية ، ولا مانع من الاختلافات اللغوية واللونية ، وبتوزيع العدالة وجميع الحقوق المدنية بين الكافة بالسوية ؛ أمة خالصة من جميع علل الاجتماع ، كالطوائف المتفاوتة الحقوق ، والطبقات المتنافرة الاختصاصات ، والشخصيات المتوارثة الألقاب ؛ أمة كل ما فيها حق للكافة على السواء ، والكافة وحدة لا تقبل الانفصام ، يسودها قانون أصوله الحقوق الطبيعية ، ومبادئه المبادئ الأولية الخالدة التى لا يعتريها تبدل ، ولا يتحيفها انخرام ؛ أمة رأس مالها المعرفة ، وأصل دينها العقل ، وسلاحها العلم ، ووجهتها الحكمة ، وغايتها المثل الأعلى فى الحياة .

أُمِّىٌّ فى أقصى بيئة عن العمران ، وأبعد مكان عن معترك العقول ، وعن مضطرب النظريات والمبادئ ، يأتى بكل ما ذكرت على وجه لا مجال للشك فيه ، وبنصوص صريحة لا تحتمل الصرف ولا التأويل ، لا يعقل أن يكون كل هذا من عنده ، ولابد أن يكون قد تلقاه من عالم علوى لا من هذا العالم الأرضى . لأن هذه التعاليم التى أتى بها محمد خاصة بالأفراد والجماعات والنظم والدستور ، أرقى من أية فلسفة نقلت لنا عن الأقدمين ، وأرقى من جموعها متضافرة متساندة ، وكثير من أصولها سبقت زمانها الطبيعى بعدة قرون ، وبعضها بعد أن وُلدت مسبوقة بعدة قرون لا تزال لدى أهلها حلما من الأحلام ، ومن العجيب أن موحى هذه التعاليم يقرر أنها قد سبقت أوانها ، وأنها ستوجد من طريق النظر بعد زمان طويل ، فيُعرف

فضل الكتاب الذى أتى بها فقال : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾ (١) ، وقال : ﴿ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ ﴾ (٢) .

أى دليل على الوحى أقوى من هذا الدليل ؟ (*) .

★ ★ ★

(١) سورة فصلت ، من الآية (٥٣) .

(٢) سورة ص ، الآية (٨٨) .

(*) مجلة الأزهر ، المجلد العاشر ، الجزء السادس ، جمادى الآخرة سنة ١٣٥٨ هـ .

obeikandl.com

مهمّة خاتم المرسلين محمد ﷺ

نشرنا فى الأعداد السابقة بحوثا فى ماهية الوحى وفى إمكانه ، بل وجوده بالفعل فى عالم الطبيعة مشاهدا محسوسا ، وفى أن محمدا ﷺ كان واحدا من الذين شرفهم الله بوحيه ورسالته بعد عيسى عليه السلام بنحو ستة قرون ، واليوم نبحث فى ماهية المهمة التى كُلِّف بها محمد ﷺ .

المعروف من الإسلام بنصوص محكمة لا تقبل التأويل ، أن رسالة محمد عامة للناس كافة ؛ وأنه أرسل بالدين الأول الذى أنزله الله إلى المرسلين قاطبة ، خالصاً مما شابَهُ به المحرِّفون ، وما ألحقه به الشارحون والمؤوّلون ؛

وأن هذا الدين هو ما تدعو إليه الفطرة الإنسانية ، ويمكن أن يتفق عليه البشر كلهم ، فتصبح ديانتهم واحدة ، وجماعتهم واحدة ، لا طفرة ، ولكن بعد أدوار من التطور تحفزهم إلى هذا الموقف حفزاً طبيعيا ، تحت تأثير العلم والحكمة ، والمَثُلات العالمية المربية ؛

وأن الإسلام مجموع من أصول ومبادئ هى المثل العليا التى تتطلبها النفس البشرية ، وتترامى عليها بمجرد إدراكها ، متى خلصت من سطوة الأوهام الوراثية ، وتملصت من سلطة الوساوس التقليدية ؛

وأن محمدا ﷺ هو خاتم المرسلين ، به انتهى دور النبوة ، وانقضى عهد الوحى ؛

وأنه قد عُهِد بعده إلى العلم والعقل أن يقوما على حراسة هذا الذخر الإلهى من عبث العابثين ، وعنت المتطعين ، وأن يعملا على إزالة العراقيل دون انتشاره ، ويمهدا السبيل لإبلاغه غاية سلطانه .

هذه أمور خطيرة أعلنها الإسلام وعمل على تحقيقها ، ولم تكن تدور بخلد أحد من العالمين حتى أئمة الفلسفة أنفسهم ، إذ لم يكن يبحث أحد فى إمكان وجود رسالة عامة للبشر كافة ، ولم يكن يعرف إنسان أن الله أوحى لجميع المرسلين دينا

واحدا ، ولا أن التخالف فى الأديان إنما حدث بسبب تحريف قادتها لما أنزل إليهم منها . ولم يكن يتخيل مصلح أن هذه الأديان المتخالفة كلها يمكن توحيدها بإرجاعها إلى أصلها الأول ، فيصبح بذلك للأمم قاطبة دين واحد ؛ ولا أن هذه الأمم ذات القوميات المتباينة ، والمصالح المتعاكسة يمكن أن تتوحد ويكون لها وجهة مشتركة ، باعتبار أن توحدها أوْفى بمصالحها ، وأدعى لزيادة رفاهتها .

ولم يكن فى الأرض من يتصور المثل العليا فى الأصول ، ولا أن فى الفطرة البشرية عوامل تحفز النفوس إليها تحت تأثير المثلات العالمية ، والتفاعلات الاجتماعية .

ولم يبحث أهل الأديان قبل الإسلام فى مدى سطوة الأوهام الوراثية بالعقول ، وتأثير الوساوس التقليدية فى القلوب .

كل هذا لم يكن يتردد فى العقلية الدينية قبل ظهور الإسلام ، ولم يكن أقطاب الفلسفة يهتمون بذلك من الوجهة الدينية ، فقد كان رجال الدين منتبذين ناحية لا يسمحون لأحد أن يغشاهم فيها إلا لتأدية العبادة لهم ، ولما أقاموه من التماثيل والنُّصُب حولهم ، أما التفاهم معهم على أصل ، أو مجادلتهم فيه ، فإن ذلك كان جزاؤه الإحراق بالنار ، أو على القليل كارثة لا ينتعش منها أبدا وإن تاب .

ولما كانت كل هذه الشئون ، لو جاءت بها نصوص كتابية صريحة ، تكشف عن أكبر تطور دينى عرفه البشر منذ وجد إلى اليوم ، وتدخل المسألة الدينية فى صميم الظواهر الاجتماعية التى تماشى المنطق العلمى ، وتساير ناموس التطور الطبيعى ، ويكون انتهاء العالم إليها ضربة لازب ، فإن التدليل على قيام الإسلام عليها بالنصوص الكتابية الصريحة لا من طريق التأويل ، يحول الأنظار إلى الإسلام تحويلا لا يأتى من أى طريق آخر ، ويعتبر أقوى دليل على نبوة محمد ﷺ ، لأن عقلاً بشريًّا قبل نحو ألف وثلاثمائة سنة ، وفى بيئةٍ لا تنجب مثل هذه المبادئ، لا يقوى على تصور كل هذه الشئون العظيمة ، وينجح فى إقناع جمهور كبير بصحتها ، ثم يحمله على التكيف بها والعمل لسيادتها ، باذلاً حياته فى سبيلها ، بحيث يؤدى ذلك إلى قبول أمم عظيمة لها ، ودعوتهم العالم كله إليها .

بناء على هذه الاعتبارات يصبح مما لا يقبل الجدل أن مهمة محمد ﷺ هى أن يحمل للبشرية كلها دينا عاما ، قائما على أصول طبيعية لا يتأتى هدمها ،

بل لا يمكنُ الشك فى أصالتها ، وفى اتجاه كل المحاولات العلمية والفلسفية إلى الحمل عليها ، مصداقاً لوعده تعالى : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ، أَوَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ؟ ﴾ (١) .

تنازع أصحاب الأديان لقب الدين العام :

إن قوله تعالى فى القرآن : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٢) ، وقوله : ﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً ﴾ (٣) ، لا يدع محلاً للشك فى أن الإسلام أُنزل ليكون دينا عاما للبشرية كافة ، وقد قام محمد ﷺ بابلاغ قادة الأمم ذلك بكتب أرسلها إليهم يحملها رسل من قبله .

ولكن رجال الديانة الإسرائيلية والنصرانية ينازعون الإسلام هذا الحق ويدعون أن دينَيْهم سَبَقا الإسلام إلى هذه المهمة العليا ، فلننظر أَلَهُم حقّ فى هذه الدعوى ، أم هى مجرد غيرة متطرفة منهم على دينيْهم ، حملتهم على أن يضعوهما حيث لا تقوى أصولهما على تَبْوِئتهما هذه المكانة ، وتمكينهما فيها ؟

فأما الإسرائيلية فلا نصّ فيها على أنها هى الديانة العامة التى شرعها الله للناس كافة ، وكل ما فيها أن رجالا من أحبارها استفادوا مما جاء فى القرآن عن الإسلام ، فأرادوا أن توصف بهذا الوصف ديانتهم ، فحلوها من المهام ما لم تساعدهم على فهمهم هذا آية واحدة من كتابهم ، على حين أنه حافل بما يدل على أنها ديانة أسرة بشرية واحدة ، هى بنو إسرائيل دون سواهم ، وكل ما جاء فيها خاص بها وبمصالحها وبقوميتها وتقاليدها ، دون نظر لاعتبار آخر ، حتى إنه ليست لليهود دعوة إلى دينهم ، بل إنهم يكرهون أن يَصْبَأ إليه من ليس من أسرتهم . فمن تقاليدها أنهم إذا تقدم إليهم راغب فى ملتهم ، تلطفوا فى رده ببيان ما فى ديانتهم من التكاليف التى تشق عليه وما ينتظره فيها من

---

(١) سورة فصلت ، الآية (٥٣) .
(٢) سورة سبأ ، الآية (٢٨) .
(٣) سورة الأحزاب ، الآية (٤٠) .

الواجبات التى لا يستطيع الاضطلاع بها . فإن أصر بعد تكرار رده على هذه الصورة قبلوا منه أن يتخلق بأخلاق اليهود ، ويتأدب بآداب شريعتهم ، دون أن يكلف غير ذلك (راجع كتاب Le Judaisme لحاخام باريس المطبوع سنة ١٩٣١) .

كل ما يستندون إليه من نص فى هذا الشأن ، ما ورد فى كتابهم من أن بنى إسرائيل سيكونون محكّمين للأمم ، ومربِّين للشعوب القوية ، وأنه (قبيل قيام الساعة) سيتفق العالم كله على عبادة الله اتّباعاً لديانة بنى إسرائيل ، إذ يكونون قد عقدوا مع الخالق عهدا جديدا ، فيضطر الناس إلى القيام عليه .

نقول : إن هذا القول وحده يكفى فى الاعتراف بأن الديانة اليهودية بحالتها الراهنة ليست بديانة عامة ، ولكنها ستكون كذلك ، كما يقولون ، فى مستقبل بعيد جدا قبيل يوم الدين . فلا موجب لملاحاة أشياعها فى أمر يعترفون بأنه لم يوجد بعد .

وأما الديانة المسيحية فإن أهلها يعتبرونها الديانة الأخيرة العامة ، مستندين فى ذلك إلى اشتمالها على البُشْرى بخلاص العالم من اللعنة التى أصابتهم بسبب عصيان أبيهم آدم لله ، وأكله من الشجرة التى حرمت عليه فى الجنة . فإنهم يقولون إن الله غضب على آدم لعصيانه أمره ، ولعنه وقذف به إلى جهنم ، وورث هذه اللعنة جميع ذريته ، وسيقوا بعد وفاتهم إلى النار ، إلى أن أراد الله أن يعفو عنهم ، فأرسل ابنه الوحيد يسوع إلى الأرض ، فحملت به مريم جنينا ، ثم ولدته طفلا ، فتربى ونشأ وأخذ يعلم الناس ويعظهم ويَنْعَى على الكهنة والفريسيّين من اليهود تنطّعَهم فى الدين وأخذَهم بقشوره ، وغفلتَهم عما أودع فى آيات الكتاب من الأسرار ؛ فحقدوا عليه ، ووشوا به ، فقبضت عليه الحكومة وصلبته . وكان فى صلبه كما يقول المسيحيون فدية للناس كافة من اللعنة التى كانوا يرزحون تحتها . وبعد ثلاثة أيام من دفنه قام من بين الأموات ، وقابل بعض حواريه وأوصاهم ووعظهم ، ثم صعد إلى السماء ، وأخذ مكانه عن يمين الرب . وقبيل يوم القيامة ينزل إلى الأرض ويدين أعداءه ، وبذلك يتم وعد الله ، وتنتهى هذه الحياة الجسدانية ، ويخلد الذين آمنوا ببنوته لله ، واقتدائه الخلق بنفسه ، فى الملأ الأعلى على مثل حال الملائكة ، ويخلد الذين لم يؤمنوا بذلك فى النار .

وقد نقل مؤلفو الأناجيل كل ما قاله عيسى عليه السلام ، وما وصى بالقيام عليه من الأصول ، وهى تنحصر فى الاستسلام المطلق ، وحب الغير ولو كان عدوا لدودا ، والصفح عن المسيئين ، وعدم مقابلة الشر بالشر ، والتخلص من علائق الدنيا ، وانتظار الموت فى سكينة وهدوء .

هذه الديانة لا تصلح أن تكون ديانة عامة للبشر لثلاثة أسباب :

(أولها) ابتناؤها على عقيدة لا يمكن أن يقام عليها دليل ، فإن لم تؤخذ بالتسليم فلا يكون لها سلطان ما على الضمير الإنسانى ، والتسليم غير ممكن فى عصر كثرت فيه الشكوك ، وأصبح أهله لا يدينون حتى للدليل العقلى إن لم يعززه شاهد من العالم المحسوس . فكيف يتأتى تعميم هذه العقيدة بين الناس وهى فاقدة أهم أركان التدليل ؟

(ثانيها) قيامها على مبدأ الزهد والتخلص من علائق الدنيا ؛ والحياة الاجتماعية تأبى ذلك ، ولا أدل عليه من أن الأمم الآخذة بهذا الدين تقوم على المبالغة فى الاستكثار من المال ، وفى التورط فى علائق الدنيا خلافا لما يوصيهم به ؛

(ثالثها) إبطالها أهم أركان التشريع ، وهو منع الاعتداء بالقوة ، والضرب على أيدى الجناة لكفّ أذاهم عن الناس ، وإصلاحا لنفوسهم . فإذا أخذ الناس بمبدأ العفو المطلق ، على قاعدة : من سرقك رداءك فأعطه قميصك ، ومن ضربك على خدك الأيمن فأدر له الأيسر ، استشرى الشر فى الأرض ، وطمّ العدوان فيها ، وذلّ الخيِّرون للشريرين ، وتمادوا فى استذلالهم حتى منعوهم حق الحياة ، وليس هذا من الإصلاح المنشود لهذا العالم فى شىء .

أقول هذا ولا أنكر مبلغ السمو الذى تنطوى عليه هذه الأصول من تجريد النفس من جميع العلائق الجسدانية ، ولكنه سمو قد يسمح به لأفراد يعيشون فى ظل جماعات قوية تستطيع أن تحمى الفضيلة وأهلها من عدوان العادين ، وعبث العابثين ؛ أما أن يصبح هذا التجريد دينا للكافة فلا يعقل بوجه من الوجوه .

هل يصلح الدين الإسلامى أن يكون هو الدين العام ؟

بقيت الكلمة الآن للإسلام ، فهل يصلح أن يكون هو الدين العام ؟

أما أنه قد أوحى الإسلام إلى محمد ﷺ على هذا الوصف ، فقد ثبت ذلك من النصين القرآنيين اللذين أتينا بهما فى مقدمة هذا البحث ، وهو لأجل أن يقيم هذا التطور الدينى الجلل على المسلّمات العلمية ، قدم لذلك مقدمات بدهية :

(أولها) أن الله لم يُخْل أية أمة فى الأرض من الهداية بواسطة رسول ، فقال تعالى : ﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ (١) ، وقال : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ﴾ (٢) .

(ثانيها) أن الأمم كانت تقابل هذه الهداية بالاستعصاء ، إلا أفراداً قليلين كانوا يتبعون الرسل متحملين ما يناهم بسبب صُبُوئهم عن دين آبائهم من العنت والاضطهاد العظيم ، قال الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِى شِيَعِ الْأَوَّلِينَ . وَمَا يَأْتِيهِم مِّنْ رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ (٣) .

(ثالثها) أن الأمم التى كانت تأخذ بالأديان ، كانت تعمد إلى تحريفها لتتفق وما هى عليه من وثنيتها ، وكان لزعمائها مصلحة فى ذلك التحريف وهى استغلال جهالات تلك الأمم لحفظ مكاناتهم ، وامتداد سلطانهم ، قال تعالى : ﴿ أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ ؟ (٤) ، وقوله : ﴿ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ (أى فى الكتاب) إِلاَّ الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْياً بَيْنَهُمْ ﴾ (٥) .

(رابعها) أن الدين الذى كان يبعث الله به رسله تَتَرى إلى الأمم ، كان يناسب الميول التى فطرهم عليها ، ليكون أخذهم به قائما على الغريزة الأدبية التى متعت بها نفوسهم ، وكان هذا الدين واحدا لجميع الخلق لوحدة تلك الغريزة فيهم ، ومواده

---

(١) سورة فاطر ، من الآية (٢٤) .
(٢) سورة غافر ، من الآية (٧٨) .
(٣) سورة الحجر ، الآيتان (١٠ ، ١١) .
(٤) سورة البقرة ، الآية (٧٥) .
(٥) سورة البقرة ، من الآية (٢١٣) .

توحيد الله وتنزيهه ، والاستسلام لإرادته ، والإحسان فى العمل ، قال الله تعالى : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللهِ الَّتِى فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ، ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ . مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ ، وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ، مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ [١] ، وقال تعالى : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ للهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾ ؟ [٢] . والدليل على وحدة هذا الدين المنزل لجميع الأمم قوله تعالى : ﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا ، وَالَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ، وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى : أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ . كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ، اللهُ يَجْتَبِى إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِى إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ . وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ ، وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ، وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ . فَلِذَلِكَ فَادْعُ (أى فلوحدة الدين فادع) وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ ، وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ ، وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ مِنْ كِتَابٍ ، وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ ، اللهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ، لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ ، لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ (أى لا محاجة ولا خصومة) ، اللهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴾ [٣].

(خامسها) أن هذا الدين الحق الفطرى الذى أرسله الله إلى الأمم كافة بلسان رسله ، قد أعاد الله إنزاله إلى محمد ﷺ ، رفعاً للخلاف الذريع بين الأديان مع وحدة أصلها ، وأمر رسوله بأن يقوم بدعوة الناس إليه كافة ، باعتبار أنه دين البشرية كلها لا دين أمة واحدة منها ، فقال تعالى : ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الإِسْلَامُ ، وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ ، وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللهِ فَإِنَّ اللهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ . فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ للهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ ، وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا ،

---

(١) سورة الروم ، الآيات (٣٠ - ٣٢) .

(٢) سورة النساء ، من الآية (١٢٥) .

(٣) سورة الشورى ، الآيات (١٣ - ١٥) .

وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّما عَلَيْكَ الْبَلاغُ ، وَاللهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴾ (١) .

(سادسها) دين البشرية وحدة لا تتجزأ تشمل الإيمان بجميع من أرسلهم الله من رسل ، وما أنزله إليهم من كتب ، جملةَ ، لأن التفصيل لا سبيل إليه ، قال الله تعالى : ﴿ قُولُوا آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ ، وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى ، وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ ، لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ . فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوا ، وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ ، فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللهُ وَهُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ . صِبْغَةَ اللهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ ﴾ (٢) . وقال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ ﴾ (٣) .

ومما هو ذو دلالة قاطعة فى أن الإسلام أنزل ليكون دين الإنسانية عامة ، لا دين أمة خاصة ، ما شرطه الله على الداخل فيه من وجوب الإيمان بجميع الرسل الذين أرسلوا إلى الأمم وبجميع الكتب المنزلة إجمالا ، فإن كفر بواحد من أولئك أو من تلك الكتب ، اعتبر كافرا وإن آمن بالقرآن ومحمد ، قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللهِ وَرُسُلِهِ ، وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللهِ وَرُسُلِهِ ، وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ ، وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً ، أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا ، وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُهِيناً ﴾ (٤) .

فالإسلام هو الإيمان بدين الإنسانية كلها وعدم التفرق فيه ، تحقيقا للوحدة الدينية ، وهى أساس كل خير يرجى للجماعات البشرية ، قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الإِسْلامُ (وقد علمت ما هو) ، وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلاَّ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ ، وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللهِ فَإِنَّ اللهَ سَرِيعُ

---

(١) سورة آل عمران ، الآيتان (١٩ - ٢٠) .
(٢) سورة البقرة ، الآيات (١٣٦ - ١٣٨) .
(٣) سورة الأنعام ، من الآية (١٥٩) .
(٤) سورة النساء ، الآيتان (١٥٠ ، ١٥١) .

الْحِسَابِ . فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ للهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ ، وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ (يريد بالأميين العرب) أَأَسْلَمْتُمْ ، فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوا ، وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاَغُ ، وَاللهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴾ [1] .

هذا أكبر تطور حدث فى العالم يمكن تسجيله للعقلية الدينية ، وهو ما لا يمكن حدوثه من عقل بشرى بدون إرشاد سماوى ، لأن الحالة العالمية فى عهد نزوله لم تكن توحى به ، ولم تكن البيئة العربية مما تحفز إليه . فجهد أعظم عبقرى يسند إليه إصلاح تلك البيئة ، كان ينحصر فى أن يوجد للأمة العربية دينا يجمع شتاتها ، ويوفق وجهاتها ، ويحملها على أن تتحول إلى أمة ، بدل أن تبقى على حالة قبائل متناحرة .

هذا كان جهد أكبر عبقرى يتكلف إحداث عمل جلل يسجله له التاريخ فى تلك البيئة . أما عدم الوقوف عند حاجة تلك البيئة الجزئية ، والاشتغال بحاجة العالم كله ، وما تقتضيه من عرض أصول الأديان التى بها يدين الناس ، ومحاولة بيان الفاسد منها ، وإصلاح ما يقبل الإصلاح منها ، والعمل على تمهيد الطريق لتوحيدها بإحالة أصولها إلى حقائقها ، والإفاضة فى بيان ماهية الدين ، وعلاقة الإنسان به ، وفى توزّع الأمم فى الأرض ، وحاجتها إلى وحدة عامة ، إلخ إلخ كل هذا لا توحى به البيئة التى نشأ فيها محمد ﷺ ، ولا أرقى عقلية فى أرقى أمة من أمم الأرض على عهده .

إن الصبغة العامة فى الديانة الإسلامية واضحة إلى حد أن آية واحدة من الكتاب لم توجه إلى العرب خاصة ، وكل ما فيه موجه إلى الناس كافة ، أو إلى المؤمنين ، بحيث أن تالى القرآن الكريم من أية ملة كان لا يشعر بإن هذا الكتاب نزل بين ظهرانى أمة غير أمته . وهذه ميزة يجب أن تلحظ فى التدليل على عمومية الدين الإسلامى .

الأصول التى قررها الإسلام لتحقيق هذا التطور العالمى :

لم يكتف الإسلام بتوحيد الدين من الوجهة النظرية ، ولكنه عمل على تحقيق

---

(١) سورة آل عمران ، الآيتان (١٩ ، ٢٠) .

هذا التطور العظيم بتأليف أمة عالمية غير قومية ، كان فيها لذوى الألوان المختلفة ، واللغات المتباينة ، والأجناس المتباعدة ، حقوق واحدة ، تحت اسم جامع مشترك تفنى فيه جميع الأسماء الخاصة ، وهو (الأمة الإسلامية) .

فما هى الأصول التى قررها الإسلام لتحقيق هذه التطور العالمى ؟

(أولها) وجوب الرجوع إلى العقل فى الأخذ بأية عقيدة دينية .

(ثانيها) طلب الدليل على كل ما يتطلب التصديق .

(ثالثها) الاستماع إلى كل قول واتباع أحسنه .

(رابعها) تصيّد الحكمة من كل مَظَانّها حتى ولو جاءت عن المشركين .

(خامسها) طلب العلم من المهد إلى اللحد ، وبذل كل جهد للوصول إلى لبابه .

(سادسها) النظر فى السموات والأرض ، وفى جميع ما يقع تحت سلطان المشاعر والتأمل فيها .

(سابعها) السياحة فى الأرض لدراسة أحوال الأمم ، ومعرفة علل تقدمها وتأخرها ، أو هلاكها وبقائها .

(ثامنها) عدم الاعتداد بالعقائد الموروثة ، ومحاكمتها إلى العلم والعقل وتطلّب الدليل عليها .

(تاسعها) الامتناع عن التقليد وتطلّب الاقتناع الشخصى .

(عاشرها) استشعار المسئولية الشخصية ، والاعتقاد بأن الإنسان لا يغنى عنه أحد شيئا .

هذه أصول لو أخذت بها أمة لحدث فى عقليتها ونفسيتها ووجودها الاجتماعى تطور سريع لا يقف دون إبلاغها أرفع مستوى تتوق إليه فى حياتها الأرضية .

ولو أخذت به الأمم قاطبة لتقاربت وتفاهمت وتعاطفت ، وانتهت إلى الوحدة التامة ، كما حدث للأمة الإسلامية وهى مؤلفة من عشرات من القوميات ، وكما يحدث لمن يقبل الإسلام دينا له ، إذ يجد نفسه كأنه من المسلمين جسدا وروحا ، وينسى

أنه من نابتة بيئة أجنبية . فالإسلام رسول الوحدة الإنسانية ، والممهد لأكبر تطور روحى وعقلى واجتماعى سيحدث فى العالم البشرى .

نعم إن هذا التطور العام لا يمكن حدوثه إلا بعد أدوار كثيرة من الانقلابات الأدبية والعلمية والاجتماعية ، ولكنه سيحدث لا محالة ، وليس بكثير أن تمضى عليه بضع مئات من السنين بعد وصوله إلى حالته الراهنة ، وقد أنبأنا الله بذلك فى قوله تعالى : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ، أَوَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ (١) .

ولكن مما يجب علينا بيانه هنا أن هذا التطور سيكون لمصلحة الإسلام لا محالة ، لأنه كفل لنفسه هذه المكانة بما أحاط جوهره به من العوامل التى تجعله الغاية التى ليس وراءها غاية .

فهو يدعو إلى توحيد الله وتنزيهه ، ويحول دون الخيالات أن تتناوله على أية حالة ، وهى التى فرقت الأمم شيعا ، وألبست الأوهام حلة الدين ﴿ يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون به علما ﴾ .

ويدعو إلى الوحدة الاجتماعية والوحدة الدينية ، ولكنه لا يلزم الأمم فى التمشى إليهما أن تتوخى أسلوبا مقررا ، تاركا لناموس الترقى الحرية فى تكييف جهودها على ما تستدعيه حالات الانتقال فى خلال المقتضيات المختلفة .

ويمنح العقل سلطانه كله ، لا يحمِّله إصْراً إلا ما يزيد فى نضوجه من علم ونظر ، ويبارك فى قواه لمن تثبت وتحقق .

ويطلق للميول الجسدية حريتها ، ولكن فى دائرة الاعتدال التى ترسمها الحكمة المستمدة من العلم الصحيح ، لا من التحكم وإرادة التسخير .

ويأمر بالتوسع فى العلم ، والتبحر فيه ، العلم الذى يحصله الواقع المحسوس ، لا الذى يقيم صرحه الخيال ، وتمده الأوهام والظنون .

---

(١) سورة فصلت ، الآية (٥٣) .

ويأمر بمراعاة الأحوال ، وتقدير الظروف ، ومعالجة الأمور بالحكمة لا بالخرق ، وبالتشاور لا بالاستبداد بالرأى .

ولا يحرم على أهله إلا الخبائث ما ظهر منها وما بطن ، سواء أكانت فى مأكل ومشرب ، أم فى قول وعمل ، مُحِلًّا لهم الطيبات فى حدود الاعتدال والتوسط .

ويحث على دوام الترقى ، وتطلّب الأحسن من كل شىء ، وتوخّى الأمثل من كل رغِيبة .

ويحض على التخلق بأخلاق الله ، وهى ما يرى ظاهرا يبهر الأنظار فى كتاب الكون المبسوط للكافة ، يرون فيه آثار حكمته وعدله ، ورحمته وإحسانه ، وتدبيره وإتقانه .

إنّ ديناً يكون قد أُحيط بكل هذه العوامل ، وكفى المحلَّلات بما رأيته من الحوافظ ، جدير بأن يبقى على الدهر ، وإن انحرف عنه أهله ، ويدوم دوام السموات والأرض ، وإن الْتوى على بعض أصحاب الأغراض فهمه ، حتى إذا استعدت النفوس إلى إيثار الوحدة الاجتماعية والوحدة الدينية ، وجدت الإسلام أمامها يدعوها إلى حظيرته ، فأقبلت عليه إقبال الهيم على المورد العِدّ ، فقبلته دينا لها إن طوعا وإن كرها ! وإلى هذا يشير الحق فى قوله تعالى : ﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ اللهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا [1] وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ . قُلْ آمَنَّا باللهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا ، وَمَا أُنْزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ ، وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ [2] [*] .

★ ★ ★

---

(١) المراد بقوله تعالى : « كرها » فيما يظهر : إكراه الحوادث العالمية الناس على قبول الإسلام كمنفذ لهم من الشرور .

(٢) سورة آل عمران ، الآيتان (٨٣ ، ٨٤) .

(*) مجلة الأزهر ، المجلد العاشر ، الجزء السابع ، رجب سنة ١٣٥٨ هـ .

أدوار الدعوة الإسلامية
وما لقى أهلها فى سبيلها

ليس فى الشئون الاجتماعية ما هو أشد على المصلحين من تغيير عادة من عادات أمة برمتها ، فضلا عن تغيير عقيدة من عقائدها ، فما ظنك بتغيير كل ما يخالف الحق والعدل من عاداتها ، والعقلَ والحكمةَ من عقائدها فى سنين معدودة ؟ هذا ما لا سبيل إليه فى نظر جميع الذين عالجوا الشئون الاجتماعية ، ودخلوا فى مضايقها ، وهو الذى قام به محمد بن عبد الله خاتم المرسلين ﷺ ، واعتبر بحق أدلّ آية على صحة رسالته . آية تحطم حيالها كل ما يمكن أن يُدْلَى به من الشبهات وهى راسخة رسوخ الجبال ، وتضمحل دونها ضروب الخلابات الكلامية وتتبخر فى الهواء ، وهى ماثلة أمام الأعين مثول الشمس فى رائعة النهار .

يقول شوبنهور الألمانى مؤسس المذهب التشاؤمى : « يخيل للجاهل أن كل حادث تعليله ميسور ولا تتراءى له وجوه الإعضال فيه » ، ويخيل للجاهل فيما نحن بصدده أن تعليل نجاح النبى فى الانقلاب الذى أحدثه فى الأمة العربية أمر ميسور ، ويحوم فكره حول الشبهات التى يتلقفها عن أعداء هذا الدين ، فيعزوه إلى البيان الساحر الذى أذيعت به الدعوة الإسلامية ، ويغيب عنه أن سحر البيان أعجز من أن يهدم ما بنته الأجيال فى متطاول الأحقاب والقرون ؛ أو إلى الإجبار والإكراه ، ويتناسى أنهما لا يكونان إلا بالقوى المسلحة ، وأين هى ممن لا ناصر له ولا معين ؟ فإن قيل : كان له الناصرون والمعينون . قلنا : هذا وجه الحيرة ! فكيف حصل على عدد عديد منهم بحيث تغلبوا على أمة بأسرها ؟ ثم نسأل : وكيف بقوا أقوياء مخلصين بعد مامات زعيمهم ولم يتفرقوا شَذَر بَذَر ، كما هى السنّة فى كل أمر لا يقوم على أساس من الحق ركين ؟

أشد ما ترامى إلى هؤلاء القشريين من خصوم الإسلام ، أن العرب كانوا فى دور نهوض ، فلما أهاب بهم محمد إلى العمل أجابوه منقادين ؛ ويغبّى هؤلاء المضللون عن أنه لو كان لأهل الجاهلية ميل إلى الاجتماع والنهوض لما استنكروا ما جاءهم

به النبى من النور المبين ، ولالتفوا حوله متساندين متكاتفين . ألم يبلغك أنه حين دعا النبى قريشا للدين وهى أرقى قبائل العرب إدراكا وبصرا بأعقاب الأمور ، ثار ثائرها ، وجن جنونها ، وطفقت تعارض الدعوة بكل وسيلة تطوف بخيال الجاهليين : الاستهزاء ، الإيذاء ، الاضطهاد ، المقاطعة ، حتى اضطر النفر الذين قبلوها للهجرة إلى الحبشة مرتين ، واضطر من بقى للالتجاء إلى شِعْبهم فى الجبل يتّقون فيه مباغتة إخوانهم الأقربين ؟ وبعد أن بقيت الحال على هذه الوتيرة ثلاث عشرة سنة اضطر المسلمون للهرب من وجه المشركين إلى المدينة ، وتبعهم النبى ﷺ خفية ، وقد اضطر فى الطريق أن يلجأ إلى غار يغص بالهوام والحشرات ، حتى استبعد متعقبوه أن يكون قد لجأ هو وصاحبه إليه ، لأن دخوله فوق مقدور الآدميين !

ثم ألم يبلغهم أن خاتم المرسلين ﷺ بعد أن استقر فى المدينة ، وكان قد هدى الله أهلها للإسلام ، تتبعه فيها المشركون شانّين عليه حروبا طاحنة ، قاصدين اصطلام المؤمنين ، والفراغ من أمر هذا الدين ؟

فهل يعقل أن قبائل تميل إلى التوحد والنهوض ، تناهد دعوة مثل الدعوة الإسلامية أساسها توحيد القلوب ، وتطهير العقول ، وترقية النفوس ، وجلب المصالح ، ودرء المفاسد ، والعيش على أكمل وأجمل ما يكون ؟

وهل لم يبلغ الخصوم أن قريشا ، وهى القبيلة التى كان يرجى أن تكون قد شعرت قبل غيرها بعوامل التوحد والنهوض ، قد بقيت محاربة للدعوة الإسلامية ، تؤلب عليها العرب وتجمع لها الجموع ، وتقصد بهم قاعدتها بيثرب لتبيد خضراءهم فيها ، حتى شارف صاحب الدعوة ﷺ أن يدعى إلى الرفيق الأعلى ، ولولا أنه رأى وجوب فتح مكة عَنْوة لبقيت جرثومة الكفر فيها تثير على خلفائه الحروب ، وتنفر منهم القلوب ؟

فإذا كانت فى بلاد العرب قبل مجىء النبى ﷺ فكرة عن التوحد والنهوض ، أكانت تتخطى صميم العرب من قريش وخزاعة وتميم وهوازن إلخ وتأوى إلى قلوب أهل يثرب من قبيلتى الأوس والخزرج ، ولم يكونوا فى مكانة تسمح لهم بأن يحدّثوا أنفسهم بحركة من هذا القبيل ؟

وإذا كانت هذه الفكرة قد جالت فى رءوس بعض مفكريهم ، فماذا قالوا فيها من شعر نظيم ، أو نثر حكيم ؟ أكانت حركةً بكماء لا تنبس بكلمة تدل على وجودها ، وقد تكلموا فى كل شيء حتى فى الفسوق والفجور ، ونقل عنهم فى حرص شديد ، ومبالغا فيه إلى أقصى الحدود ، أفلا كانت تترامى من أحد خطبائهم أو شعرائهم كلمة فى هذا الموضوع الخطير ؟

لقد حرص نقلة اللغة ممن عاشروا أهلها فى البداوة على نقل كل كلمة من كلماتهم ، حتى الدالة على الهَنَات ، وأطنبوا فى ذكر بلاغة قائلها ، وتوسعوا فى سرد نسبه ، وتعداد مناقبه ؛ أفلم يعثروا على اسم شاعر دعاهم للوحدة أو خطيب أهاب بهم للنهوض وهى دعوة يملأ صداها المعمور ؟

الحق الذى لا مِرْية فيه أن بلاد العرب لم تقم فيها دعوة ترمى إلى توحيد قبائلها ، وإصلاح نفسيتها ، وتقويم ديانتها ؛ ولو كان لترامت إلينا أخبارها مكبرة مضخمة ، لأن هذه الحركة الإصلاحية لا يمكن أن تكون خفية ، فهى شعور تولده فى الجماعات الحاجة ، وتهيئه العوامل ، تضطرب له أعصابها ، وتنفعل به أعضاؤها ، وتنشأ تحت تأثيره أخلاق جديدة ، ومرامٍ بعيدة ، تدرك تطوراتها الشعوب البعيدة عنها ، فما ظنك بالقريبة منها ؟

أما وقد ثبت ذلك بكل دليل ، فإن مصداقه من القرآن الكريم قول الله تعالى فى كتابه : ﴿ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا (أى حين نادينا موسى) ، وَلَكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ ، لِتُنْذِرَ قَوْماً مَآ أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ [١] .

كيف انتشر الإسلام فى بيئة الجاهلية ؟

لو تصدى أحدنا أن يتخيل ما يمكن أن يعمله رسول أُمر أن يقوم بدعوة جديدة فى وسط هذه البيئة الأمية المتشددة فى جاهليتها ، لما وجد لذلك طريقا معقولا ، إلا ما سلكه النبى ﷺ ، وهو أن يدعو أولا أهل بيته ، فآمنت به امرأته خديجة بنت خويلد ، وابن عمه على بن أبى طالب ، وكان فى كفالته لضيق ذات يد

---

(١) سورة القصص ، الآية (٤٦) .

والده ، وكان إذ ذاك قد ناهز سن الحلم ، وزيد بن حارثة بن شرحبيل ، وكان مولاه اشتراه ثم أعتقه وتبنّاه ، وأمّ أيمن حاضنته .

ثم رأى ﷺ أن يدعو سرا من يعرف فيهم رجاحة العقل ، وسلامة الفطرة ، والنزوع إلى الحق ، فشافَهَ بالدعوة أبا بكر بن أبى قحافة ، وكان صديقا له ، فأسرع إلى تصديقه ، لما يعلم فيه من الصدق والأمانة والإخلاص . وكان أبو بكر من عظماء قريش ورجالاتها المعدودين مالا وجاها وسخاء ، وكان محببا إلى الناس مبجلا فيهم ، لذلك اتخذه النبى ﷺ وزيرا له ، يستشيره فى جميع ما لم ينزل فيه وحى .

فقام أبو بكر من ناحيته بدعوة من يثق بنضوج عقله ، وصحة منطقه ، فلبى دعوته رجال : منهم عثمان بن عفان ، وكان شابا لا يجاوز العشرين . فلما ترامى إلى عمه الحكم بن عفان خبر إسلامه ، قبض عليه وأوثقه كِتَافاً ، وآلى على نفسه أن لا يحلّه حتى يرجع إلى دين آبائه ، فتحمل عثمان هذا الاضطهار بصبر وثبات . فلما رأى عمه تفانيه فيما هو فيه ، أطلقه .

ومنهم الزبير بن العوام وأمه صفية بنت عبد المطلب ، فلما بلغ عمه خبر خروجه عن دين آبائه كان يعذبه بأن يغمره فى الدخان المتصاعد من الحريق ، فلم يزده ذلك إلا تشبثا بما هو فيه على أنه لم يتجاوز سن الحلم .

ومنهم عبد عمرو بن عوف بن عبد عوف (وقد غير النبى ﷺ اسمه فجعله عبد الرحمن بدل عبد عمرو) .

ومنهم سعد بن أبى وقاص ، وكانت أمه حمنة بنت أبى سفيان بن أمية ، فلما علمت بصبوئه عن دين آبائه قالت له : بلغنى أنك قد صبأت ، فو الله لا يظلنى سقف من الحر والبرد ، وإن الطعام والشراب علىَّ حرام حتى تكفر بمحمد ! فلم يثنه ذلك عن عزمه واستمر على ما هو عليه .

ومنهم طلحة بن عبيد الله ، وكان يسمع من أهل الكتاب أن نبيا سيرسل فى آخر الزمان ، فلما سمع دعوة أبى بكر بادر إلى الإسلام .

وممن سبقوا إلى الإسلام مسوقين إليه بدافع وجدانى ، صهيب ، وكان عبدا

روميا ؛ وعمار بن ياسر وأبوه وأمه سمية ، وعبد الله بن مسعود ، وكان راعيا للغنم ، فلما سمع بمبعث رسول الله اتبعه ولازمه ، فكان يمشى أمامه ، ويستره إذا اغتسل ، ويوقظه إذا نام ، ويلبسه نعليه إذا قام ؛ وأبو ذر الغفارى ، وكان من أهل البداوة ، فصيح اللسان حلو الحديث ؛ وسعيد بن زيد العدوى وزوجه فاطمة بنت الخطاب أخت عمر ؛ وأم الفضل لبابة بنت الحارث زوج العباس عم النبى ﷺ ؛ وأبو سلمة ابن عبد الله ابن عمة رسول الله وزوجه أم سلمه ؛ وعثمان بن مظعون الجمحى وأخواه قدامة وعبد الله ، والأَرْقَم بن أبى الأرقم ؛ وخالد بن سعيد بن العاص ، فغضب عليه أبوه ومنعه الغذاء ، فأوى إلى رسول الله ﷺ ، وأسلم بعده أخوه عمرو بن سعيد .

حدث كل هذا والنبى مختف فى دار الأرقم بن أبى الأرقم يدعو إلى دينه سرا . ثم أمره الله بالجهر بالدعوة فى قوله تعالى : ﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [١] ، فصعد على جبل يقال له الصفا وطفق ينادى : يا بنى فِهْر ، يا بنى عدىّ ، لبطون قريش ، فكان الرجل إذا لم يستطع الخروج بنفسه ، أرسل من يأتى له بالخبر ؛ فلما اجتمع الناس قال لهم النبى ﷺ : « أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلا بالوادى تريد أن تغير عليكم ، أكنتم مصدقِىّ ؟ » قالوا : نعم ما علمنا عليك كذبا . قال : « فإنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد » .

فلم يرفع أحد بما قاله رأسا ، ولم يقم له وزنا ، وأغلظ بعضهم له القول ، ثم تولوا عنه مدبرين .

عند ذاك أنزل الله عليه قوله تعالى : ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ (وهم بنو هاشم وبنو المطلب وبنو نوفل وبنو عبد شمس) ، وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ . فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّى بَرِىءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [٢] ، فاستدعاهم رسول الله وقال لهم : « إن الرائد لا يكذب أهله ، والله لو كذبت الناس جميعا ما كذبتكم ، ولو غررت الناس جميعا ما غررتكم ، والله الذى لا إله إلا هو إنى لرسول الله إليكم

---

(١) سورة الحجر ، الآية (٩٤) .

(٢) سورة الشعراء ، الآيات (٢١٤ - ٢١٦) .

خاصة ، وإلى الناس كافة ، والله لتموتن كما تنامون ، ولتبعثن كما تستيقظون ، ولتحاسبن بما تعملون ، ولتجزون بالإحسان إحسانا ، وبالسوء سوءا ، وإنها لَجَنَّةٌ أبداً ، أو لَنارٌ أبداً » !

فكلمه القوم كلاما ليّناً إلا عمّه أبا لهب فإنه أغلظ له القول ، وصاح بالناس أن خذوا على يديه قبل أن تجتمع عليه العرب ، فإن أسلمتموه إذن ذللتم ، وإن منعتموه قتلتم . فأجابه عمه الثانى أبو طالب قائلا : والله لنمنعنه ما بقينا ! وقد بر بيمينه . وكان الجهر بالدعوة فى السنة الثالثة من النبوة .

عهد الاضطهاد وما لقى منه النبى والمسلمون :

لما أُمر ﷺ بإعلان الدعوة ، أخذ يغشى مجالس قومه ويدعوهم للإسلام ، ويبالغ لهم فى إظهار حجته ، ووجاهة محجته ، ويكثر لهم من الأدلة عن عوج طريقتهم ، وبطلان ديانتهم . فكانوا يقابلونه بالسُّخَر والاستهزاء ، كأن يقولوا : هذا ابن أبى كبشة يكلم من السماء ، وهذا غلام عبد المطلب يكلم من السماء ، ولا يتجاوزون هذا الحد . ولكن لما أخذت الآيات تترى عليه فى تسفيه أحلامهم ، وتحقير آلهتهم ، وتضليل آبائهم ، تغير موقفهم حياله ، وانتقلوا من مجرد الاستهزاء إلى ضروب من الإيذاء ، وصنوف من الاضطهاد لا تطاق .

دخل عليهم النبى يوما المسجد الحرام فوجدهم يسجدون للأصنام ، فنهاهم عن ذلك ، وأنبهم على خروجهم على دين أبيهم إبراهيم . فأجابوه : إننا إنما نسجد لها لتقربنا إلى الله . فبيّن لهم بأن ذلك هو الشرك الذى لا يقبله الله منهم ، ونعى عليهم استرسالهم فيما هم فيه ، فأجمعوا على مخالفته ومنابذته ، كما يحكى الله ذلك فى قوله تعالى : ﴿ وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ ، وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ . أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهاً وَاحِداً ؟ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ . وَانْطَلَقَ الْمَلأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيءٌ يُرَادُ . مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِى الْمِلَّةِ الآخِرَةِ ، إِنْ هَذَا إِلاَّ اخْتِلاَقٌ . أَأُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا ، بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِنْ ذِكْرِى ، بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ . أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ . أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ، فَلْيَرْتَقُوا فِى الأَسْبَابِ . جُنْدٌ مَّا هُنَالِكَ

مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزَابِ . كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ . وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ أُولَئِكَ الْأَحْزَابُ . إِنْ كُلٌّ إِلاَّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ . وَمَا يَنْظُرُ هَؤُلَاءِ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً مَا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ ﴾ (١) .

وكان ما أجمع عليه المشركون معاكسة النبى ﷺ بكل وسيلة ، ومحاربة دينه بكل حيلة . فصاروا يتحككون بالمسلمين ويحاولون حملهم على الرجوع إلى دينهم بعد أن صاروا مسلمين . وكان أكثر الناس سعيا فى هذه السبيل أبو جهل وهو من أشراف قريش ، فكان إذا سمع بإسلام رجل نابه الذكر جليل القدر ، لامه وهدده قائلا : تركت دين أبيك وهو خير منك ، لنسفهنّ حلمك ، ولنغلبن رأيك ، ولنضعن شرفك . وإن ترامى إليه إسلام تاجر ، قال له : لنكسدن تجارتك ، ولنهلكن مالك . وإن كان الذى أسلم مستضعفا أهانه وضربه .

وقد تفنن المشركون فى ضروب التعذيب حتى لم يدعوا وجها من وجوهه إلا أخذوا به حتى الإيلام بالنار . فقد عذبوا بها عمار بن ياسر ، وعذبوا بها أيضا أباه وأخاه وأمه . فمات ياسر من أثر النار . وأخذ أبو جهل امرأته فعذبها ثم طعنها برمح فقتلها .

وقيل فى تفصيل هذا التعذيب إن أبا جهل كان يلبس عمارا درعا من الحديد فى اليوم الصائف .

وممن عذب فى الله خبّاب بن الأَرَتّ ، وكان يحدِّث عن نفسه فقال : لقد رأيتنى يوما وقد أوقدت لى نار ووضعوها على ظهرى فما أطفأها إلاّ وَدَكه ، أى دهنه .

وكان قد أسلم غير خباب عبيد كثيرون ، فكان مواليهم يذيقونهم عذاب الهون ، رجاء أن يصبأوا عن الإسلام فما كانوا يفعلون . وكان أبو بكر إذا مر بعبد يعذب فى الله ، اشتراه وأعتقه ، منهم بلال مؤذن النبى ﷺ ، وحمامة أم بلال وبنتها ، وزُنَيرة .

---

(١) سورة ص ، الآيات (٤ – ١٥) .

فكان مولى بلال يخرجه إذا حميت الظهيرة بعد أن يجيعه ويعطشه يوما وليلة ، فيطرحه على ظهره فى الرمضاء : أى الرمل إذا اشتدت حرارته ، ثم يأمر بالصخرة الثقيلة فتوضع على صدره ، ثم يقول له : لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد وتعود إلى عبادة اللات والعزى !

أما زُنَيرة وأخت عامر بن فهيرة ، فكانتا لعمر بن الخطاب قبل أن يسلم ، فمر به أبو بكر وهو يعذبهما بالضرب فاشتراهما منه وأعتقهما . أما عامر بن فهيرة فكان يعذَّب حتى يخر مغشيا عليه ، فاشتراه أبو بكر كذلك وأعتقه .

وكان أبو فكيهة عبداً لصفوان بن أمية ، فأخرجه فى يوم شديد الحر مقيداً إلى الرمضاء ، ووضع على بطنه حجرا حتى خرج لسانه وعم صفوان حاضر ، فكان يقول لابن أخيه : زده عذابا حتى يأتى محمد فيخلصه بسحره . فاشتراه أبو بكر وأعتقه .

وأم عنبس كانت أَمَةً لبنى زهرة ، وكان الأسود بن عبد يغوث قد تولى تعذيبها بأشد ما يستطيع قلبٌ صَلْدٌ أن يفعله ، فصادفه أبو بكر فاشتراها وأعتقها . واشترى كذلك ابنتها لطيفة وكانت تُسام أشد العذاب ، وأعتقها . واشترى لبينة جارية الموئل ابن حبيب ، وكانت تلاقى من سيدها أفظع ما يلقاه ضعيف من قوى .

وممن أوذى فى الله أبو بكر نفسه ، حتى أنه نوى أن يفر بدينه من وطنه ، فقصد الحبشة وسار حتى أتى برك الغماد ، وهو موضع يبعد عن مكة بخمس ليال ، فلقيه سيد قبيلة القارة ابن الدُّغنة فسأله عن وجهته ؟ فقال : أريد أن أسيح فى الأرض وأعبد الله . فقال : مثلك لا ينبغى أن يخرج ، فأنا لك جار ، ارجع واعبد ربك ؛ وصحبه ابن الدغنة حتى أتى قريشا وقال لهم : مثل أبى بكر لا يصح أن يخرج . فقبلت قريش جوار ابن الدغنة ، وشرطوا على أبى بكر أن لا يعلن صلاته ولا قراءته . فقبل منهم ذلك ، ولكنه ابتنى لنفسه مسجدا فى فناء داره ، فكان يجلس فيه ويقرأ القرآن ، وكانت تجتمع عليه نساء المشركين وأبناؤهم معجبين به وبتقواه . فخشى المشركون أن يفتنهم ما يرونه فيه ، فارسلوا لابن الدغنة يشكونه إليه ، فحضر وقابل أبا بكر وقال له : إما أن تقتصر على ما اتفقنا عليه وإما أن ترجع إلَىَّ ذمتى . فقال

أبو بكر : إنى أرد عليك جوارك ، وأرضى بجوار الله ! فتقصده المشركون وألحقوا به من ضروب الاضطهاد ما لا يصبر عليه إلاّ مثله .

لجوء قريش إلى المسالمة بعد يأسهم من تأثير الاضطهاد :

لما رأى المشركون أن ما صبوه على المسلمين من ضروب الأذى والاضطهاد لم يزدهم إلا تمسكا بدينهم ، وتعلقا بنبيهم ، اجتمع قادتهم وتشاوروا فيما يعملون . فأشار عليهم عُتْبة بن ربيعة العبشمى وكان سيدا مطاعا ، بأن يذهب إلى محمد فيعرض عليه أموراً لعله يقبلها ويقلع عما هو ماض فيه . فقبلوا رأيه . فذهب إلى النبى ﷺ فصادفه يصلى ؛ فلما أتم صلاته فاتحه الحديث وقال له : « يا ابن أخى إنك منا حيث قد علمت ، من خيارنا حسبا ونسبا ، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم ، فرقت به جماعتهم ، وسفهت أحلامهم ، وعبت آلهتهم ودينهم ، وكفرت من مضى من آبائهم ، فاسمع منى أعرض عليك أمورا تنظر فيها لعلك تقبل منها بعضها » .

فقال النبى ﷺ : « قل يا أبا الوليد أسمع » .

فقال له الوليد : « يا ابن أخى إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا ؛ وإن كنت تريد شرفا سوّدناك علينا حتى لا نقطع أمراً دونك ؛ وإن كنت تريد ملكا ملكناك علينا ؛ وإن كان هذا الذى يأتيك رَئِيًّ من الجن لا تستطيع رده عن نفسك ، طلبنا لك الطب ، وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه ، فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوَى » .

فقال له النبى ﷺ : « لقد فرغت يا أبا الوليد » ؟

قال : نعم .

قال النبى ﷺ : فاسمع منى :

﴿ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمـٰنِ الرَّحِيمِ . حـٰمٓ . تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ . بَشِيراً وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لاَ يَسْمَعُونَ . وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ ، وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ ، وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ

حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ . قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ ، فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ . الَّذِينَ لاَ يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ . إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ . قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَاداً ، ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ . وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا ، وَبَارَكَ فِيهَا ، وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا ، فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ . ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ ، فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً ، قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ، فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ ، وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا ، وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظاً ، ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ . فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ . إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللهَ ، قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً ، فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴾ (١) .

لما انتهى النبى ﷺ إلى هذا الحد ، أمسك عتبة بفيه وناشده الرحم أن يكف عن قراءته .

فلما رجع عتبة إلى قريش قال لهم : والله لقد سمعت قولا ما سمعت مثله قط . والله ما هو بالشعر ، ولا بالكهانة ، ولا بالسحر . يا معشر قريش أطيعونى فاجعلوها لى ، خَلُّوا بين الرجل وبين ما هو فيه ، فاعتزِلوه . فو الله ليكونن لكلامه الذى سمعت نبأ ، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم ، وإن يظهر على العرب فعزّه عزكم !

فقالوا له : لقد سحرك محمد !

فقال لهم : هذا رأيى ، وتركهم وشأنهم .

يتجلى من سفارة عتبة بن ربيعة إلى النبى ﷺ أمر ذو دلالة قوية فيما نحن بصدده : ذلك أنه فى كل ما قدمه من المغريات لخاتم المرسلين كان همه مصروفا

---

(١) سورة فصلت ، الآيات (١ - ١٤) .

إلى شيء واحد وهو المحافظة على الحالة التى كانت قريش عليها ، فلو كانت هنالك حركة تطور لظهرت جلية فى كلامه ، بل لجعلها محور حواره ، ولما عاد إلى قومه لم ينصحهم باتباعه ، بل لم يتبعه هو نفسه ، وكل ما أشار عليهم به أن يتركوه وشأنه ، فإما أن يكفيهم الناس أمره فيطمئنوا على عاداتهم ووثنياتهم ونظامهم الاجتماعى ، وإما أن تكثر أنصاره ويسود فيستفيدوا من علو شأنه باعتبار أنهم قومه وأقرباؤه ، وليس هذا شأن الجماعات التى نشأت فيها عوامل النهوض والتطور . وليتهم رضوا بهذه الحالة من الحياد التى دعاهم إليها عتبة ، ولكنهم رأوها مما لا تطاق حيال دعوة يوشك أن تثمر ثمراتها فتنقلهم مما جمدوا عليه آمادا طويلة ، ولا يبغون عنه حولا .

إن الذين يريدون الغضّ من تأثير الإسلام فى الأمة العربية لتقليل شأن الرسالة المحمدية ، يبذلون جهدا عظيما فى تمويه هذا التعليل ، ويفتتن بهم بعض المسلمين بقصد تمجيد الأمة العربية ، ولكن لا أولئك ولا هؤلاء يستطيعون أن يأتوا على ما يقولون بسلطان بيّن ، لا سيما وأن أدوار المشادة بين النبى ﷺ وبين المشركين لم تقف عند هذا الحد ، كما ستراه فى المقالات التالية ممّا لا يدع مقالا لقائل ، إن شاء الله (*) .

* * *

(*) مجلة الأزهر ، المجلد العاشر ، الجزء الثامن ، شعبان سنة ١٣٥٨ هـ .

عزم المشركين على الجدّ فى وقف الدعوة الإسلامية

لم يترك الجاهليون وجها من وجوه الإيذاء والإيلام إلا عاملوا به النبى ﷺ ومن آمنوا معه ، فلما عجزوا عن فتنتهم عن دينهم ، أجمعوا على معاملتهم بأقصى ضروب الشدة ، حتى يفرغوا من أمرهم ، ولكنهم قبل أن يقدموا على هذا الأمر رأوا أن ينذروا عشيرة النبى ﷺ ليتخلوا عن حمايته ، فإذا أبو أعلنوهم الحرب وعاملوهم معاملة الأعداء . فمشى جماعة منهم إلى أبى طالب بن عبد المطلب عم النبى ﷺ ، وقالوا له :

« يا أبا طالب ! إن لك سنا وشرفا ومنزلة فينا ، وإنا قد طلبنا إليك أن تنهى ابن أخيك عنا فلم تنهه ، وإنا والله لا نصبر على هذا من شتم آبائنا ، وتسفيه أحلامنا ، وعيب آلهتنا ، فإن لم تكفه عنا نازلناه وإياك ، حتى يهلك أحد الفريقين » !

فلما سمع أبو طالب ما قالوه عظم عليه مخالفة قومه وعداوتهم ، ولكنه لم يطب نفسه بخذلان ابن أخيه ، وتعريضه لوحشيتهم ، فرأى أن يكلمه فى هذا الأمر فقال له :

« يا ابن أخى ! إن قومك جاءونى فقالوا لى كيت وكيت ، فأبق علىّ وعلى نفسك ولا تحملنى من الأمر ما لا أطيق » .

فأجابه محمد ﷺ بقوله :

« يا عم : والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أنزل عن هذا الأمر حتى يظهره الله تعالى أو أهلك فيه ما تركته » ! ثم بكى وقام . فلما ولى ناداه أبو طالب ، فأقبل إليه فقال له : « اذهب يا ابن أخى وقل ما أحببت والله لا أسلمك إليهم » !

فلما رأت قريش أن مسعاهم لم يفلح اعتزموا أن يسلكوا لتحقيق غرضهم طريق الشدة ؛ ودعا أبو طالب بنى هاشم وبنى المطلب إلى حماية محمد ﷺ ، فأجابوه إلى ذلك إلا عمه أبا لهب .

فتوالى الاضطهاد بشدة على المسلمين وعلى النبى ﷺ . فممّا روى من إيذائهم له ما حدّث به عبد الله بن مسعود قال : كنا مع رسول الله ﷺ فى المسجد وهو يصلى ، وقد نحر بعض الناس جزورا وبقى فرثه وكرشه . فقال أبو جهل : ألا رجل يقوم إلى هذا القذر يلقيه على محمد ؟ فقام عُقبة بن أبى مُعَيْط ، وجاء بذلك الفرث فألقاه على النبى ﷺ وهو ساجد ، فتضاحكوا وجعل بعضهم يميل إلى بعض . قال ابن مسعود : فخفنا أن نلقيه عن ظهره ، حتى جاءت فاطمة ابنته بعد أن ذهب إليها إنسان وأخبرها الخبر ، واستمر النبى ساجدا حتى ألقته عنه .

وروى البخارى عن عروة بن الزبير قال : قلت لعبد الله بن عمرو بن العاص : أخبرنى بأشد ما صنع المشركون برسول الله ﷺ . قال : بينا رسول الله يصلى بفناء الكعبة إذ أقبل عقبة بن أبى معيط فأخذ بمنكبه ولوى ثوبه فى عنقه فخنقه خنقا شديدا ، فأقبل أبو بكر وأخذ بمنكبيه ودفع عنه .

وروى أنهم اجتمعوا مرة على رسول الله ﷺ وجذبوا رأسه الشريف ولحيته حتى سقط أكثر شعره ، فقام أبو بكر دونه وهو يبكى ويقول : أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله ؟

ولما بدا له ﷺ أن يدعو أهل الطائف ، وهى قرية بقرب مكة ، شخص إليها فقابله أهلها بأقبح رد ، وتولاه سفلتهم بالرجم وهو راجع حتى أدموا رجله بحجر .

وكان النبى ﷺ بعد أن أُمر بإعلان الدعوة لا ينى فى دعوة القبائل فى مواسم الحج ، فكان يتتبعهم بمنى والموقف يسأل عنهم وعن منازلهم ، ويأتى إليهم فى أسواق الموسم وهى عكاظ ومجنة وذو المجاز . وكانت العرب إذا حجت تقيم بعكاظ شهر شوال ، ثم تنتقل إلى سوق مجنة وتقيم به عشرين يوما ، ثم تزايله إلى سوق ذى المجاز فتقيم به أيام الحج ، فكان النبى ﷺ يقصدهم فى هذه الأسواق ويعرض نفسه عليهم طالبا إليهم أن يحموه حتى يبلغ رسالة ربه ، فكان يلازمه رجل من المشركين يصد الناس عنه مدعيا لهم أن به جِنّة ، فيعرض الناس عنه ، ولا يقيمون لما يقوله وزنا ؛ استمر على ذلك نحو عشر سنين .

هجرة بعض المسلمين إلى الحبشة :

إن ما كان يلحق النبى ﷺ من الأذى والاضطهاد كان يلحق مثله الذين آمنوا به ، حتى أن أبا بكر وهو سيد كبير من ساداتهم ضرب مرة حتى اختلط وجهه . فلما طفح الكيل ، ولم يبق فى قوس الصبر منزع ، رأى بعضهم أن يهاجر إلى الحبشة ، فارين إلى الله بدينهم ، وتاركين لأموالهم وعشائرهم . فاتفق عشرة رجال وخمس نسوة على الشخوص إلى الحبشة ، منهم عثمان بن عفان وزوجه رقية بنت رسول الله ، وأبو سلمة وأم سلمة ، وأخوه لأمه أبو سبرة وزوجه أم كلثوم ، وعامر بن ربيعة وزوجه ليلى ، وأبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة وزوجه سهلة بنت سهل ، وعبد الرحمن بن عوف ، وعثمان بن مظعون ، ومصعب بن عمير ، وسهل ابن البيضاء ، والزبير بن العوام ، وأكثرهم من أشراف قريش تحت قيادة عثمان بن مظعون ، ولكن لم يطب لهم المقام هنالك لأن الأحباش كانوا على النصرانية وذوى عصبية دينية لا تعرف التسامح ، فنبت بهم الديار ، فلم يلبثوا إلا ثلاثة أشهر ثم عادوا أدراجهم ، ولما رجعوا لم يتمكن من دخول مكة إلا من وجد له مجيرا ، فدخل أبو سلمة فى جوار خاله أبى طالب ، ودخل عثمان بن مظعون فى جوار الوليد بن المغيرة ، ثم رأى أن يرد عليه جواره عندما بلغه ما صنعه من اضطهاد المسلمين وما لا يزال يصنعه معهم .

إسلام حمزة عم النبى ﷺ وعمر بن الخطاب :

كان من أكبر العوامل فى إسلام حمزة بن عبد المطلب عم النبى ﷺ ما شعر به من الامتعاض الشديد من إيذاء المشركين لابن أخيه محمد ﷺ . فقد قيل إن مولاة لعبد الله بن جدعان كانت فى دارها ، فرأت بعينها وسمعت بأذنها أن أبا جهل وهو أبو الحكم بن هشام ، لقى رسول الله فشتمه ورماه بالتراب ووطئ برجله عاتقه ، ثم انصرف إلى نادى قومه . فلم تلبث الأمة التى كانت قد تأثرت بما فعله أبو جهل أن مر بها حمزة عائدا من قنصه متوشّحا بسيفه ، فقالت له الفتاة : يا أبا عُمارة : لو رأيت ما فعل بابن أخيك الساعة أبو الحكم بن هشام ، تعنى أبا جهل ، وحكت له ما رأت . فقال لها حمزة : أنت رأيت هذا الذى تقولينه ؟ قالت : نعم .

فاستشاط حمزة غضبا وقصد المسجد فصادف أبا جهل جالسا ، فأقبل إليه ورفع قوسه وضرب بها رأسه فشجه قائلا له : أتشتم محمدا وأنا على دينه ؟ فقام رجال من بنى مخزوم ينصرون أبا جهل ، وقالوا لحمزة : ما نراك إلا قد صبأت إلى دين محمد .

فصمد لهم حمزة ولم يبال بتألبهم عليه ، فتركوه . ولما كان اليوم التالى ذهب إلى رسول الله وأسلم . فسر رسول الله ﷺ بإسلامه ، لأنه كان أعزّ فتىً فى قريش ، وأشدهم شكيمة على من يناوئه ، فخفف المشركون أذاهم عن رسول الله ، متحامين بطش حمزة ؛ وكان ذلك فى السنة السادسة من النبوة ، وقيل بل الخامسة منها .

أما عمر بن الخطاب فقد حدَّث عن سبب إسلامه فقال ما مؤداه : كنت من أشد الناس على رسول الله ﷺ ، فلقينى ذات يوم رجل من قريش ، وقال يا ابن الخطاب تزعم أنك هذا ، أى أنك الصلب القوى فى دينك ، وقد دخل هذا الأمر فى بيتك (أى الإسلام) ؟ فتملأت غضبا ثم قصدتُ دار أختى زوجة سعيد ابن زيد وقابلتها بما تكره على أن تركت دين آبائها وصبأت إلى دين محمد ، ثم نظرتُ فإذا صحيفة فى ناحية من البيت فأخذتها ، فإذا فيها : ﴿ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ ، سَبَّحَ للهِ مَا فِى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ ، فتَلَوْتُها حتى بلغت قوله تعالى : ﴿ آمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ﴾ . إلى قوله تعالى : ﴿ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ [1] ، فعظمت فى قلبى وصمّمت على الإسلام ، وقلت لهم : دلونى على مكان رسول الله ﷺ ، فجئت إليه فى دار الأرقم وكان مختفيا فيها بمن معه ، وطرقت الباب فلم يجسر أحد أن يفتح لى ، فقال لهم النبى ﷺ : افتحوا له إن يشأ الله به خيرا يهده ، فأدخلونى بين رجلين آخذين بعضدىّ . فقال لهم النبى أرسلوه ، أى اتركوه ، فجلست بين يديه ، فقال لى : ما جاء بك يا ابن الخطاب ، فو الله ما أرى أن تنتهى حتى ينزل الله بك قارعة . فقلت : يا رسول الله جئت لأومن بالله ورسوله ، أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله . !

---

(١) سورة الحديد ، الآيات (١ - ٨) .

قال عمر : وكان الرجل إذا أسلم استخفى ، فقلت : يا رسول الله والذى بعثك بالحق نبيا لا يبقى مجلس جلست فيه بالكفر إلا جلست فيه بالإيمان . قال عمر : وأحببت أن يصيبنى ما أصاب من أسلم من الضرر والإهانة .

روى عبد الله بن عمر قال : لما أسلم أبى قال : أىّ قرشىٍّ أنْقَل للحديث ؟ فقيل له : جميل بن حبيب ، فغدا عليه وغدوت أتبع أثره وأنا غلام أعقل ما أرى ، حتى لقيه فقال له : أعلمت يا جميل أنى أسلمت ؟ فو الله ما راجعه حتى قام يجر رداءه ، واتبعه عمر ، واتبعت أبى حتى إذا قام على باب المسجد صرخ بأعلى صوته : يا معشر قريش ألا إن ابن الخطاب قد صبأ ! فأخذ الناس يضربونه ويضربهم حتى قال خالى ما هذا ؟ قالوا ابن الخطاب ، فقام على الحجر وأشار بكمه ألا إنى أجرت ابن أختى ، فانكشف الناس عنه . وخاله هذا هو أبو جهل وهو فى الحقيقة عمه وإنما دعى خاله مجازا .

وروى البخارى عن ابن عمر قال : بينا عمر فى الدار خائفا إذ جاء العاص ابن وائل السهمى أبو عمرو بن العاص ، وعليه حلة حبرة ، وقميص مكفوف بحرير ، فقال له : ما بالك ؟ قال : زعم قومك أنهم سيقتلوننى لأنى أسلمت . قال : لا سبيل إليك . فخرج العاص فلقى الناس قد سال بهم الوادى . فقال أين تريدون ؟ قالوا ابن الخطاب الذى قد صبأ . قال لا سبيل إليه ، فكر الناس وانصرفوا .

ثم رأى عمر أن يرد على العاص بن وائل جواره . قال : فما زلت أضرب وأضرب حتى أعز الله الإسلام .

إن إخلاص عمر فى إسلامه يستحق أن ينوه به ، فإنه بعد أن آمن وكان من أشد الناس إيذاء للنبى ﷺ ، لم ير ما يكفِّر عنه سالف عدائه للحق إلا أن يعرض نفسه لضروب الإيذاء التى تعرض لها إخوانه الذين سبقوه إلى الإسلام ، فأعلن إيمانه لينال من الاضطهاد مثل ما لقوه . وقد لقى منه الشىء الكثير .

مقاطعة المشركين للمسلمين :

لما رأى قادة الجاهلية أن جميع ضروب الاضطهاد لم تفت فى عضد المسلمين ، ولم تحل جماعتهم ، عمدوا إلى سلاح من أشد الأسلحة على الأقليات العائشة مع أكثرية ساحقة ، وهو سلاح المقاطعة . فاجتمع صناديدهم وقرروا بعد التشاور أن

يتفقوا كتابة على أن يقاطعوا بنى هاشم وبنى المطلب ، فلا يصاهرونهم ، ولا يبايعونهم ، ولا يرحمونهم حتى يسلموا إليهم رسول الله يقتلونه . وأخذت كل جماعة نسخة من هذا العقد وعلقوا واحدة منها على جدار الكعبة . وكان ذلك سنة سبع من النبوة .

فلم يسع بنى هاشم وبنى المطلب إلا أن يجتمعوا تحت إمرة أبى طالب بن عبد المطلب ويلجأوا معه إلى شِعب بالجبل متحصنين فيه ، وأمر النبى ﷺ من أسلم من غير بنى هاشم وبنى المطلب أن يهاجروا إلى الحبشة حتى لا يهلكوا جوعا . وبقى من دخل الشِعب منهم فى حالة يرثى لها من الجوع والعطش ، وكادوا يهلكون جميعا لولا أن الله سخر لهم رجلين كانا يعطفان عليهم ، ويأتيانهم بشىء من الطعام خفية ، أحدهما هشام بن عمرو العامرى ، كان من أشد الناس معارضة فى إبرام عقد المقاطعة ، وقد أسلم بعد ، فكان يأتيهم بما يقدر عليه من الأغذية ، فأدخل عليهم فى ليلة واحدة ثلاثة أحمال من الأطعمة ، فبلغ قريشا ما صنع فكلموه فى ذلك ، فوعدهم بالإقلاع عن هذا الفعل ، ولكنه لم يف بوعده ، وعاود إمداد المقاطَعين بالأغذية ، وبلغ قريشا أيضا فأغلظت له القول وهمت بقتله .

وثانيهما حكيم بن حزام ، لقيه أبو جهل يوما وقد حمل غلامه قمحا إلى من بالشعب ، فكلمه فى ذلك وشنع عليه ، فأخذ حكيم لحى بعير فضربه به فشجه ، وتدخل بينهما أبو البَخْتَرِىّ فلم يتطور التنابذ إلى ما هو أشد منه .

ولكن ماذا عسى أن تكون قيمة هذه المساعدات الفردية بإزاء حاجة عشرات من الأنفس ؟ فلقد لقوا من الشدة ما لا يصبر عليه إلا الكرام .

وقد روى أنهم جاعوا حتى أكلوا الخَبَط (ورق الشجر) . وكان بعضهم يحضر الحج ويحاول أن يشترى شيئا فلا يستطيع من الرقيب الذى يوكل به حتى يرجع للشِعب .

لبث بنو هاشم وبنو المطلب على هذه الحال سنتين وقيل ثلاث سنين ، وهو الأرجح ، حتى بلغ بهم الجهد ، فاتفق خمسة من رجالات قريش ليلا على أن يعملوا فى غدهم على نقض عهد المقاطعة ، وهم هشام بن عمرو العامرى ، وهو أشدهم

رغبة فى ذلك ومحاولة له ، وزهير بن أبى أمية المخزومى ابن عمة رسول الله ﷺ ، والمطعم ابن عدى النوفلى ، وأبو البخترى بن هشام الأسدى ، وزمعة بن الأسود الأسدى .

فلما كان الغد جاء زهير إلى المسجد وعليه حلة ، فطاف بالبيت ثم أقبل على الناس وقال : يأهل مكة أنأكل الطعام ونلبس الثياب وبنو هاشم والمطلب هلكى لا يبيعون ولا يبتاعون ؟ والله لا أقعد حتى تشق هذه الصحيفة ! يريد صحيفة العقد المعلقة بالكعبة ، فعارض فى ذلك أبو جهل ، فرد عليه زمعة بن الأسود ، وعاونه أبو البخترى بن هشام الأسدى ، وانضم إليهما المطعم بن عدى ، وقام إلى الصحيفة ومزقها .

فلما بلغ بنى هاشم والمطلب ما حدث خرجوا من الشِعب .

هجرة المسلمين الثانية إلى الحبشة :

قلنا إن النبى ﷺ حين أوى هو وعشيرته الأقربون إلى الشعب ، أمر من أسلم من الناس أن يهاجروا إلى الحبشة ، فاجتمع نحو ثلاثة وثمانين رجلا منهم ، وثمانى عشرة امرأة وخرجوا مهاجرين إليها ، منهم جعفر بن أبى طالب وزوجه أسماء بنت عميس ، والمقداد بن الأسود ، وعبد الله بن مسعود ، وعبيد الله بن جحش وامرأته أم حبيبة بنت أبى سفيان ، وانضم إليهم الذين أسلموا باليمن وهم أبو موسى الأشعرى وبنو عمه .

فلما رأت قريش ذلك أرسلت فى أثرهم عمرو بن العاص (قبل أن يسلِم) وعمارة بن الوليد بهدايا إلى النجاشى ليسلّم المسلمين لقريش ، فأبى عليهما ذلك ، وقد بقى هؤلاء المسلمون بالحبشة حتى هاجر النبى ﷺ إلى المدينة فعادوا إليه بها .

محاولة الاستعانة ببنى ثقيف بالطائف :

لما آنس النبى ﷺ أن قريشا قد تضافرت على معاكسته بكل وسيلة ، رأى أن يلجأ إلى بنى ثقيف بالطائف ، وهى بلدة فى الجنوب الشرقى من مكة ، طالبا إليهم حمايته حتى يؤدى رسالة ربه ، فقابل رؤساءها وكلمهم فى هذا الشأن ، فأخشنوا له فى الرد ، وأرسلوا غلمانهم ليقطعوا عليه الطريق وهو قافل إلى مكة ،

فلما أقبل عليهم قابلوه بوابل من الحجارة حتى أدموا عقبه ، ولولا أن زيد بن حارثة كان يذودهم عنه للحقه منهم أذى كبير .

ولما قرب من مكة لم يستطع أن يدخلها لما علمه كفار قريش من ذهابه إلى الطائف واستنصاره عليهم بأهلها . فأرسل ﷺ إلى المطعم بن عدى بن نوفل يخبره أنه يريد أن يدخل مكة فى جواره . فأجابه إلى ذلك وحمل هو وبنوه أسلحتهم ، واستعدوا لقتال من يعترضهم ، وذهبوا إلى رسول الله واستقبلوه خارج مكة وقدموا معه حتى بلغوا به المسجد .

عند ذاك سأل المشركون المطعم بن عدى قائلين : أمجير أنت أم تابع ؟ فقال : بل مجير . قالوا : إذا لا نخفر ذمتك .

وفاة خديجة رضى الله عنها :

بعد خروج بنى هاشم وبنى المطلب من الشِعب بقليل توفيت خديجة بنت خويلد ، وهى تستحق صحيفة خالدة فى سيرة النبى ﷺ ، فليس لامرأة فى الإسلام من الفضل ما يعدل فضلها ، فقد كتب لها أن تكون لخاتم المرسلين زوجة ، فتولته وهو فى ميعة صباه بالعطف والرعاية ، حتى بلغ الثالثة والخمسين من عمره المبارك ، فلم تدع وجها من وجوه العناية به ، والإخلاص له ، إلا قامت به على أكمل وجه .

شاطرته الحياة وهو فى ريعان الشبيبة ، فكفته بمالِها الكدَّ المضنى ، فسهلت له التجرد للتفكير والتأمل ، وهما بابا الاهتداء إلى الحق ، وطريقا التهيؤ للنبوة التى كتبها الله له ، وسوغت له الانقطاع عن العمل الدنيوى الأيام والليالى التى كان يقضيها فى غار حراء ، ولم تقف عقبة فى سبيله لقطع هذه المرحلة من حياته الاعتزالية .

ولما انبثق له النور الالهى ، وشافهه الملك بالوحى ، وأدركه ما أدركه من الهلع ، كانت أول من تولته بالتهدئة ، وحاطته من حنانها بما خفف عليه احتمال تلك المفاجأة .

ولما أدرك أن ما جاءه هو الوحى ، وأنه بعث بالدين الحق ، كانت هى أول

من آمن به ، وفى إيمانها سكن لقلبه ، إذ لو كانت كأكثر النساء جامدة على عقائدها الوراثية ، لكانت بموقفها المخالف منه ، وهو بين روعة الوحى ولوعة الشعور بعظم التبعة ، أشد عليه من أكفر الناس به .

فلما شدد عليه قومه النكير ، وتقصدوه بالأذى والاضطهاد ، كانت هى أكبر المشجعين له على المضى فى أمره ، ولو أدركها الذعر ، وحاولت صرفه عن شأنه ، لسببت له من العنت ما لا يوصف بوصفٍ .

كانت خديجة رضى الله عنها ذات مال ، ولذوات المال إدلال ، وملال من اضطراب الأحوال ، وخديجة كانت تعلم أن مضى زوجها فيما هو فيه ، مع عمله فى تجارتها ، يوجب لها الكساد ، فلم يُرْو أنها فاتحته مرة فى الإقلاع عما هو بسبيله ، محافظة على مكانتها المالية ، وهذا أندر ما يكون فى أصحاب الهيل والهيلمان .

وتبعته إلى الشِعب تاركة ثروتها بين يدى الجاهليين ، وصبرت معه صبر الأكرمين ، ثم أدركتها الوفاة بعد خروجها ، فكان حزن النبى عليها عظيما ، ناهيك أنه ما نسيها طول حياته ، فحيا الله أم المؤمنين فى علّيين ، وآجرها أجر السابقين المقربين !(*) .

* * *

(*) مجلة الأزهر ، المجلد العاشر ، الجزء التاسع ، رمضان سنة ١٣٥٨ هـ .

نظرة فى مناهضة المشركين للدعوة الإسلامية وما تنمّ عنه من العوامل

إن ما لقيه النبى ﷺ فى سبيل الدعوة الإسلامية ، وما لقيه أصحابه بسبب قبولهم لها يدل على أمور لا يجوز لكاتب السيرة المحمدية أن يغفلها ، وخاصة فى هذا العصر الذى ساورت أهله الشبهات فيه ، ليس على صحة الرسالة المحمدية فحسب ، ولكن على صحة جميع الرسالات ، فقد اشتدت وطأة المذهب المادى عليهم حتى أنكروا المحسوسات ، فإن لم يستطيعوا إنكارها أولوها تأويلات شتى ، وذهبوا يتلمسون لها عللا طبيعية ، للتوصل إلى إثبات أنها أمور إنسانية بحتة ، لا أثر لعالم الروح فيها ، إذ ليس لهذا العالم وجود حقيقى فى نظرهم . ولكنهم على الرغم من موقفهم هذا لا يمكنهم أن يتخلصوا من الاعتراف بخمسة أمور وهى :

(أولا) شدة مقاومة الجاهليين للدعوة الإسلامية ، دلت دلالة قاطعة على فساد ما زعمه خصوم هذا الدين من أن العرب كانوا وقت البعثة المحمدية وقبلها بقليل فى دور نهوض اجتماعى وأدبى ودينى .

(ثانيها) تصلب الذين دخلوا فى الإسلام حديثا فى التمسك بعقيدتهم إلى حد صبرهم على الاضطهادات العنيفة ، والاستشهاد فى سبيلها .

(ثالثها) حدوث انقلاب لا نظير له فى النفسية العربية بسبب الإسلام نفسه ، إذ أيقظ فيها العاطفة الدينية بكل ما هى عليه من تجرد وسمو وعظمة .

(رابعها) انتصار الدعوة الإسلامية على أمة برمتها فى حياة صاحبها حادث لم يسبق له مثيل فى تاريخ البشر .

(خامسها) تحقق كل ما أنبأ به صاحب الدعوة من الحوادث الجسام التى قلبت خريطة العالم ، يدل على اتصاله بالعالم الروحانى الذى يُصرِّف العالم المادى ويدبّره ، وهو من أقوى الأدلة على نبوته .

ونحن نعالج كل هذه الأمور لإثبات صحتها ، وبذلك نقضى على أمهات الشبهات التى يكثر من ترديدها خصوم الإسلام للإدلال على أنه دين بشرى :

الأمر الأول :

١ – إن شدة مقاومة الجاهليين للدعوة الإسلامية دلت دلالة قاطعة على فساد ما زعمه خصوم الإسلام من أن العرب كانوا قبل البعثة المحمدية فى دور نهوض :

لا أتخيّل أن من كانت عنده مسكة من المنطق يجسُر – مهما بلغت به الخصومة لمذهب – أن يدعى أن نجاح الدعوة الإسلامية فى بلاد العرب كان سببها أن هؤلاء كانوا فى دور نهوض اجتماعى وأدبى . ألا يرى أن النبى ﷺ لبث بين ظهرانىْ قريش ، وهى أنجب القبائل العربية ، ثلاث عشرة سنة يدعوها إلى عقائد تشهد بصحتها أوليات العقل فلم ترفع بدعوته رأسا ، اللهم إلا أفرادا من أهل قرابته ، وآخرين من ذوى العقول الممتازة الذين لا يخلو من أمثالهم أى مجتمع ، مهما كان متغلغلا فى الجاهلية ، وقد كانوا من القلة بحيث خضعوا لجميع ضروب الاضطهادات ، فلما لم يجدوا منها مخرجا عمدوا إلى المهاجرة إلى الحبشة ، والهجرة إلى مثلها فى تعصبها لمسيحيتها ، وإسفافها فى جاهليتها ، ليس بالأمر الهين .

فلو كان لدى القرشيين نزوع إلى النهوض لوجدتْ هذه الدعوة إقبالا منهم ، فإن لم يكن إقبالا فتسامحا يهيىء النفوس للتطور الجديد المنتظر . ولكن الذى رأيناه أن ما قوبلت به هذه الدعوة من النفور والاستيحاش ، يقتلع فكرة النهوض من جذورها ويرمى بها إلى مكان سحيق . ألم تر أنهم ﴿ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴾ ؟ [1] مِمَّ عجبوا ؟ ألم يسمعوا قطّ أن الله أرسل فى جميع العصور إلى الأمم منذرين حذروهم مما تورطوا فيه من الآثام ، فأى عجيب فى أن يرسل الله إليهم منذرا منهم ؟ لا جرم أن التعجب من هذا الأمر يدل على أنهم كانوا مطمئنين إلى حالتهم إلى حد أنهم ما كانوا ينتظرون أن يسمعوا من جراء التمادى فيها نذيرا ، ومن جسَر على ذلك منهم اعتبروه ساحرا كذابا !

وقد تمادوا فى وثنيتهم ، وجمدوا عليها إلى حد أنهم حسبوا أن الاعتقاد بالتوحيد أمر يوجب الدهش ، ألم يقولوا : ﴿ أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَـهاً وَاحِداً ، إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴾ ؟ [2] فأى عجب فى التوحيد يمكن أن يشتد حتى يصير عجابا ؟

---

(١) سورة ص ، من الآية (٤) . (٢) سورة ص ، الآية (٥) .

وهل هذه عقلية شعب فى حالة تطور أو على وشك التطور ؟

وما كفاهم أن يقتصروا على التعجب من التوحيد ، ولكنهم تآمروا على المقاومة ، وتحالفوا على نصرة الوثنية : ﴿ وَانْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ﴾ [١] أى أن كبراءهم انطلقوا قائلين : امشوا أيها الناس واثبتوا على آلهتكم إن هذا لأمرٌ هائل يراد بكم .

والأدل من ذلك على أنهم كانوا مجردين من بواعث النهوض ودواعيه الأولية ، قولهم كما حكاه الكتاب الكريم عنهم : ﴿ مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ ﴾ [٢] ، يريد بالملة الآخرة الديانة التى كان عليها آباؤهم . وهذا يسجل عليهم أنهم كانوا شديدى المحافظة على تقاليدهم لا يبغون عنها حِوَلا ، حتى إن كل ما جد من الأمور لا يقيمون له وزنا ما دام لم يرد إليهم من طريق ديانة آبائهم .

ويجرى هذا المجرى فى الدلالة على تجردهم من جميع الحوافز للنهوض قولهم كما حكاه القرآن الكريم عنهم : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ، أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ [٣] ، وقولهم : ﴿ إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ ﴾ [٤] . وسجل عليهم الذكر الحكيم هذه الحال فقال : ﴿ إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ ، فَهُمْ عَلَى آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴾ [٥] .

الأمر الثانى :

٢ – رسوخ المسلمين فى عقائدهم إلى حد صبرهم على الاضطهاد ، والاستشهاد فى سبيلها .

إن من يتأمل فى مدى الصبر الذى تحلى به المسلمون الأولون إزاء ضروب

---

(١) سورة ص ، الآية (٦) .
(٢) سورة ص ، الآية (٧) .
(٣) سورة البقرة ، الآية (١٧٠) .
(٤) سورة الزخرف ، من الآية (٢٣) .
(٥) سورة الصافات ، الآيتان (٦٩ ، ٧٠) .

الاضطهادات الوحشية التى شنّها عليهم المشركون ، فى مدى ثُمن قرن ، يدهش من روح الاحتمال التى سهلت على أهلها مكابدة كل هذه المكاره .

إن تاريخ العالم حافل بصنوف الاضطهادات التى عومل بها المبتدعة والمخالفون ، سواء أكان مثارها خلافات دينية أم سياسية ، تكشف لنا مبلغ ما تستطيع العقيدة أن تمد صاحبها به من الصبر والثبات ، حتى تصل به إلى أقصى حدود البطولة ، ولكنا فى كل ما رأيناه لم نشهده فى طبقة العبدان والإماء ، كما شهدناه إبان الدعوة الإسلامية . فقد أتينا فى المقالين اللذين نشرا فى العددين الثامن والتاسع أن عدداً لا يستهان به من الأرقّاء ، ذكورا وإناثا ، دخلوا فى الإسلام ، فحمل ذلك ساداتهم على تعذيبهم بالحديد والنار ، فلم يرجع منهم واحد أو واحدة إلى ملتها ، فكان أبو بكر رضى الله عنه يشترى ما يعثر عليه منهم ويعتقه ، فيلتحق بالنبى ﷺ . ومنهم من صار من رجالات الإسلام حتى وصل إلى درجة عالية كبلال ، وكان مملوكا حبشيا ، صادفه الصديق يعذب بالنار لإسلامه ، فاشتراه وأعتقه ، ووجدت مواهبه الروحية والعقلية مجالا رحبا فى الديموقراطية الإسلامية الكريمة فوصل إلى دست الإمارة .

وهذه الحالة من الاستهانة بالحياة فى سبيل العقيدة فى أمة كالأمة العربية التى لا يحفظ عنها تاريخها كبير عناية بالدين ، تعتبر ظاهرة عجيبة ، ويزيدها قيمة أنها وقعت فى شعب غير متطور فى الناحية الدينية كغيره من الشعوب الكبيرة ، فلم يسمع فى تاريخ العرب كله أن قبيلتين اقتتلتا لنصر وثن على وثن ، أو لتأييد فهم جديد لأمر من أمور الدين .

الأمر الثالث :

٣ – حدوث انقلاب لا نظير له فى النفسية العربية بسبب الإسلام وحده ، إذ أيقظ فيها العاطفة الدينية :

هذه علة للأمر السابق ، فلولا أن الإسلام أيقظ العاطفة الدينية فى نفس الأمة العربية ، لما كان يعقل أن يتعصب له ناس فيقيمونه فى وسط ملة معادية له ذات كثرة ونخوة جاهلية ، ويقفون به وقفة بطولة راضين بأن ينالهم أشد ضروب الإيذاء

فى سبيله .

نعم إن النفوس البشرية لا تتجرد من العاطفة الدينية ، وكان للعرب الجاهليين قسط منها ، بدليل ما ورد من أخبار أصنامهم وأساطيرهم ، ولكن هذه العاطفة عندهم كانت ضعيفة إلى حد بعيد جدا . ناهيك بأنه لم يكن ببلاد العرب كلها رجال رسميون للقيام بالخدمة الدينية ، كما كان موجودا ولا يزال موجودا فى كل أمة ، حتى أحط القبائل الافريقية والاسترالية . ليس هذا لأن العرب كان لهم رأى فيما يجب أن يقوم عليه الدين من الحرية ، فحذفوا طبقة رجال الدين ليخلوا السبيل لهذه الحرية ، إذ لو كان الأمر كذلك لما أجمعت عليه جميع قبائلهم ولم يكن بينها ترابط من أية ناحية كانت ، ولكُنَّا عثرنا فى تاريخهم على العهد الذى كانت فيه هذه الطبقة قبل أن تحذف ، ولكُنّا توصلنا إلى معرفة الأسباب التى حملتهم على هذا الأمر الفذ الذى ليس عليه جماعة من الجماعات الإنسانية . ولمّا لم يكن شىء من ذلك فالعلة فى عدم وجود هذه الطبقة فى الأمة العربية واضح كل الوضوح ، وتؤيده جميع الدلائل ، وهو ضعف العاطفة الدينية لديها .

ومما يصح أن يتخذ دليلا محسوسا على هذا الضعف فى العاطفة الدينية ، عدم وجود كتاب مقدس لدى عرب الجاهلية ، يجمع بين دفتيه ما كانت تدين به من العقائد ، وتتوجه إليه من المقاصد الأدبية والروحية ، بل عدم وجود صحف أو نقوش تجمع هذه العقائد ، ولا يوجد أمة على سطح الأرض أو قبيلة ، مهما انحطت ، تتجرد من هذا كله . فبعْث هذه العاطفة القوية فى قلوب أمة هى من أعصى أمم الأرض قيادا ، وأشدها عنادا ، يعتبر من الأمور التى لا يعقل حدوثها فى سنين معدودة ، فأى عقل لا يحار عندما يلقى بنظرة على الأمة العربية قبل البعثة المحمدية فلا يجد فيها غير حروب تشب نيرانها ، وغارات يثور عجاجها ؛ وعندما يتسع لما ينبعث من أصوات أهلها ، فلا يطرق أذنه إلا تصايح الأقران يناهد بعضهم بعضا ، وقعقعة اللُّجُم فى أفواه الجياد تجول فى ميادين القتال ، وصليل السيوف مُصْلَتَةً فى أيدى فرسان يصاول بعضهم بعضا ، ونبآت ترتفع بالتهديد والوعيد ، والتمادى فى المشارَّة [1]

---

(١) المشارّة : المخاصمة .

والانتقام ، وتفاخر بالآباء ، وتكاثر بالضحايا والويلات ؟ فإذا ألقى عليها بطرة بعد البعثة وجد فيها سلاما ضاربا سرادقه فوق الكافة ، وأخوَّة محقت ما كان من آثار الجاهلية ، فأصبح فيها الناس ينعمون بنعمة المحبة والتكافل للنهوض بأعباء الحياة ؛ وإذا ألقى بسمعه تواردت إليه أصوات التالين والذاكرين ، والمستغفرين بالأسحار والمسبّحين ، وتكبيرات المصلين والطائفين ، والمتوسمين فى ملكوت الله والمتأملين ؛ قلنا : أى عقل لا يحار إذا شهد هذا الانقلاب الذريع وتدبره ، وخاصة إذا أراد تعليله فرأى أن العلل الطبيعة لا تجازف فى محاولته ؟

هذا المنظر وحده يشهد برسالة النبى ﷺ ، ويؤيد أن هذا الدين روح من أمر الله أنزلها على العرب ، كما أنزلها على غيرهم من الأمم ، فقامت تنفذ ما أراد الله أن يتم على يديها من الأحداث العالمية الخطيرة .

فإن قلتُ بعد هذا إن هذا انقلاب لا نظير له فى تاريخ البشرية فلا أعتبر مبالغا ، فقد أحفيت فى مطالعة تواريخ الجماعات ، وخاصة إبان الدعوات الدينية ، فلم أعثر على مثال مما أنا بصدده .

الأمر الرابع :

٤ – غلبة الدعوة الإسلامية على أمة برمتها فى حياة صاحبها حادث لم يعهده ا س فى تاريخ وجودهم :

إن تغلب الدعوة الإسلامية ، بعد كل هذه الاضطهادات الشنيعة ، والمقاومات العنيفة ، على أمة برمتها ، تغلبا (إقناعيا) بدون إجبار ، يعتبر أمرا خارقا للعادة ، وليس له شبيه فى تاريخ أية أمة من الأمم ، ولا أية دعوة من الدعوات الدينية أو السياسية .

هنا يعترض علينا بعضهم فيقولون : كيف تقول لم يكن فيه إجبار ، أنسيت تلك الحروب الطاحنة بين النبى ﷺ وبين قريش ، وبينه وبين القبائل فى مدى عشر سنين ؟ فلولا الإجبار لكان المسلمون فى جزيرة العرب قلة لا تبلغ نصف عشر مجموع أهلها .

نقول : أو نسيت أن النبى ﷺ دعا إلى الإسلام وحيدا ، فأول من لباه زوجته ، ثم أفراد من أسرته ، ثم بعض معارفه ، وكلهم لم يبلغوا أن يحموا أنفسهم ، فسيموا الخسف ، وعوملوا بالعسف ، حتى اضطروا للهرب بدينهم إلى بلاد ليس بينها وبينهم صلة ، تخيلوها أرحم بهم من قومهم ، ثم اضطر النبى نفسه إلى الهجرة مستترا ؟

إن قلتَ لم أنس ذلك كله ، قلنا : فهل بلغك أن النبى ﷺ هاجر إلى قوم لبوّا دعوته سرا فى بعض أيام الحج ، وعاهدوه على أن يحموا دعوته ضد الأبيض والأسود ولو فنوا على بكرة أبيهم فى هذه السبيل ؟

إن قلتَ بلغنى ذلك ، سألتك فأين الإكراه بعد هذا ؟ إن كل دعوة فى الأرض متى تحصلت من طريق الإقناع على أنصار يكفون لحمايتها وإذاعتها ، أمنت أن تتهم أنها انتشرت بالإكراه وإن سلكت طريق الإكراه فى حمل بعض الجماعات على مشايعتها . فقد يكون فى بقاء تلك الجماعات مشاقةً لها خطر على كيانها ، فيكون من حقها الاستيثاق لوجودها . أرأيت إن كانت حكومة ملكية تقوم بإزائها جماعة ترمى إلى قلبها جمهورية ، وقامت هذه الحكومة تأمينا لسلامتها بإجبار خصومها على الخضوع لها ، أيقال فى هذه الحالة إن هذه الحكومة بقيت ملكية بالإجبار ؟ أم يقال إنها عملت ما يجب على كل حكومة أن تعمله فى مثل هذه الحال ؟

إذ لم يكن هذا سائغا فلا يعقل أن تقوم جماعة منتظمة فى الأرض ، لأن الخلافات الدينية والسياسية لا يمكن ملاشاتها ، فيكون من الحق الطبيعى للكثرة التى تتولى الأمر أن تعمل ما يحفظ كيانها فى حدود العدل ، والحرية الشخصية .

وهذا ما فعله الإسلام فإنه بعد أن حصل من طريق الإقناع على جماعة تؤيده ، ودافع عن نفسه بها ضد الغارات التى تواترت عليه من خصومه ، رأى أن وجوده سالما ، وأداءه للرسالة التى شرع من أجلها لا يمكن أن يكون إلا بعد تطهير بيئة الإسلام من الوثنية التى لا تفتأ تهدد بالانتقاض عليه فى كل وقت ترجّى فيه أن تتغلب عليه . وقد حدث ذلك بعد وفاة النبى ﷺ إذا ارتدت قبائل العرب ، ونَدَّت كما تَنِدّ الإبل غَفَل عنها قائدها ، فأعاد أبو بكر رضى الله عنه الأمر إلى نصابه ،

وأجبر هذه العناصر الجاهلية على لزوم الطاعة .

والمعترض حين يفترض أن الأمة العربية برمتها خضعت لدعوة فرد واحد من طريق الإكراه يسجل عليها الذل والاستكانة إلى حد لم يشاهَد له شبيه فى تاريخ الجماعات الإنسانية قاطبة .

فإذا حاول تخفيف هذا الحكم القاسى ، وقال إنه لولا الإكراه لما بلغ عدد الذين دانوا للإسلام نصف عشر الأمة العربية ، فإنه لا يستفيد من هذه المحاولة كبير شىء ، ويتخلف من قوله أمر واحد يوجب الدهش ويسأل عن سببه ، وهو استطاعة نصف العشر التغلب على التسعة الأعشار والنصف ، فإذا صح هذا القول كان معناه أن الإسلام روح إلهية تقلب كيان الآخذ به وتنفث فيه قوة لا تمكن مغالبتها ، حتى أن الأمة لو أخذ به منها نصف عشرها استطاع أن يتغلب على مجموعها . وهذه النتيجة لا يحب أن يصير إليها المعترض ، وهى حقيقة ثابتة أيدتها الحوادث ، فماذا تبلغ قوة قبيلتى الأوس والخزرج إزاء قريش ، بَلْه سائر القبائل العربية ؟ وقد رأيت أنهما تغلبتا على جميع القبائل بفضل الروح التى بثها فيها الإسلام لا بفضل شىء آخر ، فقد كانتا فى الجاهلية ليستا على شىء من التفوق ، ولم يعهد عنهما أعمال بطولة نادرة ، والمعروف عنهما أنهما كانتا فيما بينهما فى حروب مستمرة وهما ولدا عم .

لا جرم أن غلبة الدعوة الإسلامية على أمة برمتها فى حياة صاحبها حادث لم يعهد له نظير فى العالم أجمع ، فى كل أدواره التاريخية . فلو كانت هذه الدعوة قوبلت فى أول ظهورها باستحسان أو بفتور لا يتعدى حد القول والإيماء ، لهان على المعترض تعليل غلبتها على جميع الدعوات . ولكنها قوبلت بعاصفة هوجاء من الاعتراضات ، لم تلبث أن استحالت إلى اضطهادات قاسية توقعها نفوس عاتية ، ثم لم تلبث هذه الاضطهات أن تطورت إلى حروب طاحنة ، فمثل هذه الدعوة التى تقابل هذه المقابلة ، لا يعقل أن تستسيغها النفوس إلا بعد أدوار كثيرة من التطورات العقلية والنفسية ، أما حصولها بالسرعة التى حصلت بها وفى حياة صاحبها فتعتبر معجزة يقل لها أن تسمى معجزة .

ثم لو نظرت فرأيت أنها بقيت بعد موت صاحبها ، ونمت نموا عظيما ،

وتفرعت شجرتها إلى كل اتجاه ، وأثمرت ثمرات لفتت بها نظر العالم إليها ، ولم تزل تثمر حتى شهد بخصبها جميع أهل الأرض ، كل هذا يدل على أن هذه الدعوة روح إلهية من نوع الأرواح التى يرسلها الحق لإحداث الانقلابات الكبيرة فى الأرض ، ولكنها فى هذه المرة دعيت لإحداث أكبر حدث عرفه البشر تغير له وجه الأرض ، ولمّا تَفْرُغ من مهمتها بعدُ .

الأمر الخامس :

٥ – تحقق كل ما أنبأ به صاحب الدعوة من الحوادث الجسام قبل حدوثها ، يدل على اتصاله بالعالم العلوى ، وهذا من أقوى الأدلة على نبوته :

من أعجب ما لازم الدعوة الإسلامية من علامات النبوة ، والمسلمون واقعون تحت كلا كل الاضطهادات الغاشمة ، وبعضهم كان هاربا بدينه عَبْرَ البحر ، والبعض الآخر لا يكاد يخرج من بيته مخافة أن يتخطف ، تأكيدات الحق جل وعز بأن الله سينصر أهلها على أعدائهم ، ويجعل كلمتهم العليا وكلمة الجاهليين السفلى . فلا مشاحة فى أن هذه التأكيدات تعتبر من أعلام النبوة .

ومما هو مدهش محير للعقل ، ولا يقبل التعليل إلا بالنبوة ، مجيء بعض هذه التأكيدات على حالة يخيل للمتأمل فيها عند نزولها أنه مبالغ فيها ، ذلك مثل تبشير المؤمنين بأنهم سيخوَّلون خلافة الله فى الأرض ، نزلت هذه الآية حين كانوا بعد هجرتهم يبيتون ويصبحون فى سلاحهم قائلين : هل يأتى علينا حين من الدهر نؤدى فيه شعائرنا آمنين فى سربنا ، مطمئنين على وجودنا ؟ وهو قوله تعالى : ﴿ وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِى ارْتَضَى لَهُمْ ، وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً ، يَعْبُدُونَنِى لاَ يُشْرِكُونَ بِى شَيْئاً ، وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الفَاسِقُونَ ﴾ [1] .

---

(١) سورة النور ، الآية (٥٥) .

وقد تحقق مؤدى هذه الآية ، فآلت إلى الأمة الإسلامية خلافة الله فى الأرض . والمراد بالخلافة كما هى فى الآية الكريمة زعامة العالم ، لا الخلافة فى الحكم ، بدليل قوله تعالى فى تلك الآية : ﴿ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ .

ومما ينتظم فى هذا الباب من التنبؤات الدالة على الانقلاباتَ الجسيمة المقدرة للبلاد العربية قوله تعالى : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ . سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ . بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ ﴾ [١] . لما نزلت هذه الآية لم يكن حدث بين المسلمين والمشركين قتال ، إذ كان نزولها أول وجودهم بالمدينة ، فقال عمر رضى الله عنه لما سمعها : « لم أعلم ما هو ، فلما كان يوم بدر رأيت رسول الله ﷺ يلبس الدرع ويقول : سيهزم الجمع » . وقد اعتبر مفسّرو القرآن الكريم هذه الآية من أعلام النبوة ، وإنها لكذلك ، فقد كان عدد المسلمين فى هذه الموقعة الكبيرة لا يبلغ ثلث عدد الجيش المغير ، ولكنه هزم شر هزيمة بعد ما هلك من قادته من لا يمكن تعويضهم .

ومما ينسلك فى هذا السلك قوله تعالى : ﴿ يَاأَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ ، وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ، إِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِى الْقَوْمَ الكَافِرِينَ ﴾ [٢] .

وقد كان النبى ﷺ قد تطوع بعض أصحابه لحراسته من الجاهليين ، فلما نزلت هذه الآية أخرج رأسه من حجرته وقال لحراسه : انصرفوا أيها الناس فقد عصمنى الله من الماس . وهذه من أقوى دلائل النبوة كسابقتها . وإلا فمن يستطيع أن يؤكد أن رجلا يتصدى لأمة برمتها ، يطعن فى ديانتها ، ويحقر من آلهتها ، ويسلم بنفسه منها ، على كثرة ما كان يُتقصد بالأذى ، حتى أجمعوا أخيرا على محاصرته فى بيته ، واشتراك جميع القبائل فى قتله . وقد قُصد بالقتل بعد ما هاجر إلى المدينة ، وخاض غمرات الحروب بنفسه ، فسلمه الله من جميع أعدائه .

---

(١) سورة القمر ، الآيات (٤٤ - ٤٦) .

(٢) سورة المائدة ، الآية (٦٧) .

ومما يتفق وهذا الموضوع قوله تعالى : ﴿ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴾ (١) .

وقد تحقق هذا الوعد وانتصر رسول الله ﷺ على جميع أعدائه أعداء الله وأنفسهم ، وانتشر الإسلام وعم نوره الأرض كما قال تعالى : ﴿ يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللهُ إِلاَّ أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾ (٢) ، وهذه الآية الأخيرة أيضا من أدل دلائل النبوة ، وفى القرآن من هذا كثير .

ومما يعتبر غاية فى تحدى أعداء الإسلام قول الله تعالى : ﴿ مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَّنْ يَنْصُرَهُ اللهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ ، فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ ، (أى فليمدد بحبل إلى سقف بيته ثم ليختنق ، فإنّ قَطَع بمعنى اختنق) ، فَلْيَنْظُرْ ، هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ ﴾ (٣) (*) .

★ ★ ★

---

(١) سورة غافر ، الآية (٥١) .

(٢) سورة التوبة ، الآية (٣٢) .

(٣) سورة الحج ، الآية (١٥) .

(*) مجلة الأزهر ، المجلد العاشر ، الجزء العاشر ، شوال سنة ١٣٥٨ هـ .

obeikandl.com